بذور الرشد

﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾

تفسير
الجمعة والمنافقون والتغابن
الميسّر

• **عنوان الكتاب:** بذور الرشد، تفسير سور: الجمعة، المنافقون، التغابن
• **اسم المؤلف:** د. محمد باباعمي
• **الطبعة الأولى:** 1440هـ - 2019م
• **مقاس الكتاب:** 125 × 190
• **عدد الصفحات:** 192
• **ردمك:** ISBN 978-9931-735-08-3
• **الإيداع القانوني:** السداسي الثاني، 2019.

Copyright © 2019 Kitabook

Cité Ghaalloul, Bordj El Bahri, Alger Tél: 023.957.273 E-mail : Info@kitabook.net

بذور الرشد

تفسير

الجُمُعَةِ وَالمُنَافِقُونَ وَالتَّغَابُنِ

المُيسَّر

محمد باباعمي

كتابك
Kitabook

بسم الله الرحمن الرحيم

بنيَّة العمل

لا يعنيني في شيءٍ أن أفسِّر القرآن الكريم، فقد فسَّره علماء كرام؛
ولكني أحيا به ومعه، ثم أتخذه منطلقا لفكري، وصبغة لفعلي...
في رحلةِ العمر، وقد جاوزت الخمسين حِجّة؛
وهي مرحلة لا أرجو معها ولا بعدها إلَّا معية الله جَلَّجَلَالُهُ،
وصحبة كلامه، وكنف رحمته ورضاه ؛
أسأله سبحانه صلاح أمر أمَّتي، وأن يفرج عنها،
ويظهر دينه على سائر الأديان،
وأدعوه أن يصحح بكلامه الحكيم انحراف البشرية
الفكري والثقافي والحضاري،
وأن يسخرنا في إطار «نموذج الرشد»،
وبالاستعانة بـ«بذور الرشد»، لهذا السبيل،
أُشهدُ اللهَ أن ليس لي في الدنيا أمنية، إلا أن يجتمع عدد من العلماء،
فيجتهدون في علوم القرآن والتفسير، وعلوم المعنى والتنزيل؛ بعقل
جَمْعِيٍّ، داخل مراكز بحثية دائمة؛ تنفق فيها أموال أثرياء الأمة،
وتسخر لها سلطة تحميها، وتجند لها سواعد وعقول
خيرة علماء هذه الأمة...
لنحقق بذلك نقلة حضارية توحيدية، نبتغي ذخرها عند الله تعالى
وما بين يدي القارئ الحبيب هو صورة لهذا المعنى،
وهو ظل لتلك النية، في انتظار تحقيق المطلوب، وبلوغ المرغوب
اللّهُمَّ فاشهد، وبلغ المقصود

فريق العمل

• الأمانة والتنسيق:	أ. جابر ناصر بوحجّام
• الإشراف الفني:	أ. جابر باباعمي
• التصميم والتنفيذ الفني:	أ. ياسين بوشارب
• متابعة النشر والطباعة:	أ. محمد الحاج سعيد
• المراجعون:	د. عماد بن عامر
	د. محمد تمزغين
	أ. علي حمودة
	أ. محمد بوسحابه
	أ. جابر باباعمي

مقاصد تفسير الرشد

- تحبيب كلام الله تعالى للناس بعامَّة، وللناشئة والشباب بخاصَّة.
- عرضُ التفسير في صورةٍ غير منفِّرة لمن لم يألف مطالعة المجلدات.
- الوصول بكلام الله تعالى في حياتنا اليومية إلى حال التمثُّل والتناغم، بعيدا عن حال التكلف والانفصام.
- الخروج من دائرة الاختلاف في الأصول وتخطئة الآخر؛ إلى سعة المعاني المتفَق عليها، والتي تمثل أصل الدين ولبه؛ مع اعتبار الأوجه التي تؤشر إلى رحابة الدين، والتي تمثل الفروع، الجائز الاختلاف فيها.
- اعتماد مصادر التفسير كلِّها: من سنة نبوية، وآثارٍ عن الصحابة، وأقوال للتابعين، وتفسير مَن بعدهم عبر القرون؛ بعيدا عن جفاء القطيعة.
- الإسهام في تحذير الناس من الجرأة على كلام الله، والتقول على الله تعالى بما لم يقل.
- اعتبار اللغة مصدرا أساسًا لفهم الآية القرآنية؛ لكنه غير كافٍ لوحده.

- توظيف الجملة وحدة معيارية للفهم بديلا عن النص المسترسل الطويل؛ وذلك استفادة من منهج القرآن الكريم في اتخاذه الآية وحدة معيارية لبنية المعنى.
- استثارة العمل بعد فهم الآية القرآنية، ذلك أنَّ الغرض من كلام الله تعالى هو «الامتثال والتمثل» لا مجرد الحفظ والأداء والفهم.
- الدعوة إلى إعمال العقل الجماعي في إنجاز مشاريع لا حصر لها، من مداخل معرفية متجاوزة للتخصص، في فهم كلام الله تعالى.
- الدفاع عن الفهم المطيافي، الذي أسسنا له منذ عقدين من الزمان «المبني على اعتماد الموشور المعرفي، المكوَّن من عقول متباينة، وتخصُّصات مختلفة، وحالات ونماذج معرفية متعددة... للوصول إلى فهم ديناميكي حركي للآية القرآنية».
- تحريك مراحل تحويل المعلومة إلى سلوك، من خلال بذور الرشد: السؤال، الافتراض، الرؤية الكونية، القاعدة الكلية، الصورة الإدراكية، مخطط الفعل، الفعل الحضاري.

بين يدي السور الثلاث

من التسبيح ذكرًا إلى التسبيح عملاً:

افتتحت السورتان المسبّحتان: الجمعة، والتغابن بقوله سبحانه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾؛ وبينهما سورة المنافقون الّتي افتُتحت بفضح صنفٍ من الناس استبدلَ بالتسبيح والذكرِ الكذبَ والخداعَ والرياءَ، قال جلَّ شأنه: ﴿إِذَا جَآءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

فبيْن التسبيحِ ذكرًا وقولاً، والتسبيحِ عملاً وحركةً؛ تكشِف السور الثلاث حقيقةَ الناس جميعًا، في تعلُّقهم بالله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وبرسوله ﷺ ابتداءً؛ ثم في تعاملهم مع الحقِّ والخير والصلاح تبعًا، ثم في معاملتهم للناس وللمجتمع بعد ذلك.

فما بيْن مؤمنٍ وكافرٍ، ثمَّة منافقٌ لا هو مِن هؤلاء ولا هو من أولئك؛ منافق هو أشدُّ ضررًا على الدين من الكافرِ؛ من حيث إنه يخادع ويضلّل، ويتلاعب بالكلمات وبالمواقف، ويزرع الشكَّ في نفوس المؤمنين المسالمين، ويوقِّع العهود والعقود مع المشركين المتربصين.

وليس الكفرُ سواء؛ فمن الكفَّار من لا يؤمن بدينٍ ولا إلهٍ

ولا رسولٍ، هو مشركٌ صريح الشركِ، جاحدٌ بيِّن الجحودِ؛ ومن الكفَّار من يدَّعي أنه من ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، ويُنسب إلى دينٍ ونبيٍّ من أنبياء الله؛ وهو يزعم أنه صاحب الأسبقية في التديُّن؛ سواءً أكان يهوديًّا أم نصرانيًّا، من الذين قالوا ﴿عُزَيْرُ ابْنُ اللهِ﴾، أو من الذين قالوا ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾.

والسور المباركات التي نحن بصددها تعرض لهؤلاء، وتتعرَّض لأولئك؛ تُعلي من شأن قوم، وتحطُّ من قدر آخرين؛ تعِد من آمن ووفَّى بالحسنى وبالنعيم المقيم، وتتوعَّد من كفر وأسرف بالتغابن وبالعذاب الأليم؛ ويبقى يقينُنا في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما وصف نفسَه بصفات الجلال والكمال، فقال: ﴿وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[الجمعة]، ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المنافقون]، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[التغابن].

قطوف من التسبيح الذِّكريِّ:

من التسبيح الذِّكريِّ الذي ندب الشارع إليه، أن يردّد اللسانُ ما يستقرُّ عليه الجنان من صور الذكر المشروعة، ومن أعظمها: ﴿سُبْحَانَ اللهِ﴾، «**سبحان الله العظيم وبحمده**»، «**سبحان ربي الاعلى**»، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾... وغيرُها كثير مما ورد في القرآن الكريم، وفي السنة الصحيحة؛ ولقد وعد الله جَلَّجَلَالُهُ من لازمها بالأجرِ الوفير، وبالخيرِ الكثير، وبالمقام العليِّ في

جنات النعيم.

ومن التسبيح الذِّكريِّ تلاوة القرآن الكريم بتفكُّر وخشوع وتدبُّر؛ قال تعالى في مستهل سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّـيِّـينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمُ ءَايَاتِهِ﴾؛ ذلك أنَّ اليهود حُمِّلوا كتابهم التوراة، غير أنهم كانوا ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراَ﴾؛ فلم ينتفعوا به، ولم ينفعهم ما فيه من خير وحق؛ ولقد حاق العذاب بكلِّ من اقتفى أثرهم وخذل كتاب الله تعالى، فأعرض عنه، واتخذه وراءه ظهريًّا؛ ووُعِد بالخزي كلُّ من سار على خطى اليهود في انحرافهم عن سواء السبيل، وإعراضهم عن أقوم سبيل.

ومن التسبيح الذِّكريِّ ما يصدح به المؤذِّن من أذانٍ يلج القلوب والأسماع «قبل البيوت والمصانع والدكاكين» بغير استئذان؛ ليذكِّرهم بدنو وقت الصلاة، وبوجوب المسارعة إلى المساجد على وضوءٍ؛ ومن أعظم الذكر ما يتلوه المصلِّي في صلواته كلِّها، وفي الجمعة بالخصوص؛ من آيات الله الكريمات، وما يردِّده من تكبيرٍ، وتسبيحٍ، وتهليلٍ، وتحميدٍ، وتسليمٍ؛ وهو متوجِّه إلى الله الواحد الأحدِ بقلبه وروحه، وبلسانه وجوارحه: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاَةِ مِنْ يَّوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوا اِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾.

ومن التسبيح الذِّكريِّ الاستغفارُ من الذنوبِ، والاستغفارُ

لمن ضلَّ وانحرفَ؛ رجاءَ أن يلين قلبُه، ويؤوب إلى الله سبحانه ويتوب؛ ومن علامة فساد المنافقين أنهم لا يستغفرون؛ وإذا قيل لهم: ﴿تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ﴾ لم يجيبوا ولم يستجيبوا؛ فتراهم وقد ﴿لَوَوْا رُءُوسَهُمْ﴾، و﴿رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾؛ ولذا حكم الله من فوق سبع سموات أنَّ الاستغفار لمن لم يُقبِل بقلبه لا ينفعُه، حتى ولو جاء من رسول الله ﷺ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَّغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾.

ولا يجوز أن ينشغل المسلم عن الذكر وعن الصلاة وعن تلاوة كلام الله سبحانه؛ ولا مبرِّر له إن كان ما يشغله لهوٌ ولعبٌ، أو ولدٌ وأهلٌ، أو دراسةٌ وطلب علمٍ، أو تجارةٌ وصناعةٌ وزراعةٌ؛ فالأمر المطلق الذي لا يُنقَض ولا يقبل التجزئة والاختزالَ، هو: ﴿لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾؛ والوعيد لمن لم يمتثل لهذا الأمر الرباني أن يحشر في زمرة الخاسرين: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

أمَّا من ضرب في الأرض، وسعى في طلب الرزق، ولم يُلهه ذلك عن الصلاة وعن ذكر الله؛ فهو من الكُمَّل الخلَّص، رضي الله عنه وأرضاه؛ يقول سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أفضل مِن ذكر الله باللسان ذكرُ الله عندَ أمره ونهيه».

قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الذكر: لا إله إلا الله**»، فهي عنوان

ديننا، وشعارُ ملَّتنا، وأمان طريقنا، وشاهدُنا عند لقاءِ ربنا؛ ولذا ذكَّرنا ربُّنا جلَّ في عُلاه، في أواخر سورة التغابن بها وبفضلِها، فقال وهو أصدق القائلين: ﴿اللهُ لَآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ﴾.

صنوف من التسبيح العمليِّ:

يخطئ من يظنّ أنَّ التسبيح يكون بالمقال دون الحال؛ ويتنكَّب عن الحقّ من يُخرج أعمال الجوارح من دائرة التسبيح؛ والحقُّ أنَّ التسبيح الظاهرَ نوعان: ذكريٌّ، وعمليٌّ؛ كلاهما مربوط بالتسبيح الباطنيِّ الخفيِّ، أي التسبيح القلبيِّ؛ فمِن الناس من يَصل القلب باللسان، واللسانَ بالجارحة؛ ومنهم من يفصل بينهما، فيدَّعي التسبيح بلسانه، وقد يُظهر بعض التسبيح بأعماله، لكنَّه بقلبه «كاذبٌ أفَّاك أثيم»؛ ومنهم من يجرِّد جميع مَلكاتِه من التسبيح، فلا هو يسبّح بالقلب، ولا باللسان، ولا بالجوارح؛ وإنما يجعل رزقه وديدنه أنه «يكذِّب، ويكفر، ويشرك بالله جَلَّجَلَالُهُ».

وكأنَّ سورة الجمعة نزلت لتشيد بالمسبّحين الصادقين، وسورة المنافقون أنزِلت لتفضح حقيقة المسبّحين ظاهرا، وهم يُعلنون خلاف ما يخفون، ويظهرون نقيضَ ما يبطنون: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَّقُولُوا (وقد يكون القول تسبيحا) تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾، والحقُّ أنَّ هؤلاء تَركّزَ فيهم معنى «العداوة»،

فصاروا وكأنهم «هم العدوُّ» ولا عدوَّ غيرهم: ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُوفَكُونَ﴾.

ولا يكون التناغم بين القول والفعل، بين القلب واللسان والجوارح؛ إلاَّ مع إيمان صادق بالله تعالى؛ ولذا ورد الخطاب في القرآن الكريم بعامَّة، وفي السور الثلاث بخاصَّة، بـ: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ فجاء التكليف بعد النداء في سورة الجمعة: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾؛ وجاء النهي مقرونا به في سورة المنافقون: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾؛ وقرن التحذير بالنداء في سورتي الجمعة والتغابن: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾، ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾.

الفوز العظيم للمسبحين لله جل جلاله، والغبن الأليم للمعرضين عن الله سبحانه:

فضلُ الله تعالى عظيمٌ، وعزَّته سبحانه متعدية إلى رسوله ﷺ وإلى عباده الصالحين، وجنَّته عزيزةٌ غاليةٌ؛ فهو يضاعِف لمن يشاء الأجر والمثوبة: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ﴾[الجمعة]؛ ﴿وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ﴾[المنافقون]؛

﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[التغابن].

ولقد وعد الله تعالى، وهو الشكور الحليم، عباده المؤمنين الذاكرين، المسبّحين العاملين، بالفوز بالجنَّات والنجاة من النيران: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا نُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَنُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾؛ ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ ففي الدنيا يندرج في﴿مَا عِندَ اللَّهِ﴾ تعالى: الهدايةُ، والرزقُ، والحفظُ، والرحمةُ، والمعية الربَّانيَّة... وفي الآخرة ﴿مَا عِندَ اللَّهِ﴾ جَلَّوَعَلَا: جنَّته، وصحبةُ رسوله ﷺ، ودوام نعمه ووفرتها، ورضوان من الله سبحانه ﴿أَكْبَرُ﴾ من كلّ ذلك كلّه.

أمَّا الكفَّار والمنافقون، والمعرضون عن التسبيح، والساعون بالعمل الطالح، فتوعَّدهم جلَّ في علاه بأنَّه لا يهديهم ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، وأنَّه عليم بحقيقتهم، ومُحيق بهم سخطه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾؛ ذلك أنهم سيموتون وسيُردُّون إلى ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ وهم لم يعملوا إلّا شرًّا، ولم يقترفوا إلاَّ وزرًا، ولم يجترحوا إلاَّ سيئاتٍ ومعاصي؛ ومن ثم كان جزاؤهم أنهم في ﴿النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، و﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ووصف الله تعالى الكفَّارَ المعرضين، والمنافقين المخادعين

أنهم ﴿لاَّ يَفْقَهُونَ﴾، وأنهم ﴿سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُوفَكُونَ﴾، وأنهم ﴿يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾، ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَومَ الْفَاسِقِينَ﴾، ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿وَاللهُ عَلِيمُ بِالظَّالِمِينَ﴾، وإنهم ﴿لَكَاذِبُونَ﴾... وغير ذلك من الأوصاف الخسيسة، والمآلات التي يُغبن فيها الإنسان المتمرد، ويذوق وبال أمره.

ولقد ذكَّر الله جَلَّجَلَالُهُ بهذه المعاني المؤمنين الذين يصِلون القول بالفعل، والذين ينتفعون بعلمهم وبما يتعلَّمون؛ فأولئك يعلِّمهم الرسول ﷺ ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، وأولئك الذين حذَّرهم الله سبحانه أن يقولوا ما لا يفعلون، فسمعوا وأطاعوا: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾؛ أمَّا من فصل في مقام الوصل، ومن قطع في مقام الربط، فمثله ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَاَ بِيسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِئَايَاتِ اللهِ﴾.

تمنِّي الموت «محرار» الإيمان (ترموماتر):

إذا أحبَّ أحدٌ زوجا أو قريبا أو صديقا تمنَّى لقاءه، وحين اللقاءِ يبالغ في إطالة مدَّة اللُّقيَا؛ أمَّا إذا أبغض أحدٌ شخصًا فإنَّ أولى علامات بُغضه تجنُّبه اللقاء به، وإذا ما اضطرَّ أن يجتمع به قصَّر في المدَّة، وبحث عن التعلات لكي يغادر؛ ومن ثم كان «تمني اللقاء» مؤشِّرا على الحبِّ أو البغض، على الشوق أو الهجر.

والموت للمسلم نهايةُ مرحلةٍ وبداية مرحلةٍ، فهو أوان لقاء الله تعالى، وهو وقت الانتقال إلى رحمته سبحانه؛ مِن دار الكبد والعناء إلى دار الجزاء والهناء؛ ولذا كان تمنِّي الموت مؤشِّرا و«محرارا» لدرجة حرارة حبّ الله تعالى؛ ولقد تحدَّى الله سبحانه اليهودَ في سورة الجمعة بأن يتمنَّوا الموت، إن كانوا صادقين في ادعائهم أنهم ﴿أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ﴾ فقال: ﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ ولم يمهلهم الله جَلَّجَلَالُهُ حتى يجيبوا بالقول أو بالفعل، وإنما فضحَهم وهو أعلم بهم من أنفسهم أنهم ﴿وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدَاً بِمَا قَدَّمَتْ اَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمُ بِالظَّالِمِينَ﴾؛ وفي سورة البقرة: ﴿وَلَنْ يَّتَمَنَّوْهُ أَبَدَاً بِمَا قَدَّمَتْ اَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمُ بِالظَّالِمِينَ﴾؛ فقلوبهم خاوية من حب الله سبحانه، وصقيع شنآن الله ورسوله والمؤمنين يخرم أفئدتهم.

وكذلك الذي فرَّط وضيَّع حين تحضره المنية يسأل الله تأخيرها وتأجيلها، ولا يتمنى الموت الذي يفضح إسرافه وظلمه لنفسه؛ قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ والجواب الصارم والقاصم من الله تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا اِذَا جَآءَ اَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

فالاستعداد للموت، والعمل لما بعد الموت، وتمني الموت... كلُّ ذلك من علامات الإيمان، ومن دلائل الخيرات والإحسان؛ ولقد كان صحابة رسول الله ﷺ أحرص ما يكونون على الموت شهادةً، وهم يخافون العيش ذلاًّ؛ بهذا فتحت الدنيا لهم، ووسَّعوا رقعة الإسلام إلى

آماد بعيدةٍ لم يشهد التاريخ لها مثيلا؛ ومما تذكره كتب السير والمغازي أنَّ خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «نزل الحيرة فخرج إليه أشرافها مع بيصة بن إياس بن حية الطائي، وكان أمَّره عليها كسرى بعد النعمان بن المنذر، فقال لهم خالد: أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام؛ فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين: لكم ما لهم، وعليكم ما عليهم؛ فإن أبيتم فالجزية؛ فإن أبيتم فقد أتيتكم بأقوام هم أحرصُ على الموتِ منكم على الحياة؛ جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم».

صدق الله تعالى العظيم، وقد وصف الصحابة الكرام بقوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، وبقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا﴾.

فلن يستعيد المسلمون مجدهم حتى يبلغوا هذا المقام السامي من الإيمان، وحتى يكونوا أشجع من عدوهم، وأكثر طلبا للشهادة والجهاد في نصرة الحقّ؛ أمَّا إذا جبنوا وخذلوا، وإذا كرهوا لقاء الله جَلَّ وَعَلَا؛ فإنهم لن ينالوا إلَّا خزيا، ولن يرتعوا إلَّا في مراتع الذلّ والهوان..

تفسير

سُورَةِ الجُمُعَةِ

المُيسَّر

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿1﴾

بذور المعنى

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾: بسم الله بُعث محمد ﷺ مربيًّا للمؤمنين، وباسمه سبحانه تفضَّل على من اتبع هُداه فهَداه؛ وبرحمته ـ وهو الرحمن الرحيم ـ جنَّب أتباع رسول الله محمدٍ ما كان من أتباع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من إعراض عمَّا أنزِل إليهم، وتكذيبِ نبيّهم، إلاَّ من أعرض عن الحقِّ فهو مثلُهم ومصيره مصيرُهم؛ ثم سبحانه ـ وهو العزيز الحكيم ـ تحدَّاهم إن كانوا صادقين أن يتمنَّوا الموت ويتمنَّوا لقاءه سبحانه؛ ثم برحمته ـ وهو الرحيم الشكور ـ شرع للمؤمنين صلاة الجمعة، وشرع لهم الضرب في

الأرض، وجزاهم خير الجزاء، ورزقهم من لدنه رزقا حسنا ﴿وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

- ﴿يُسَبِّحُ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾: استهلال السورة بفعل ﴿يُسَبِّحُ﴾ منسوبا إلى ما في السماوات وما في الأرض، لكون السورة تحكي تواصل تسبيح المؤمنين بمبعث الرسول محمد ﷺ، الذي بُعث في الأميين رسولاً؛ وقد توهَّم الذين حمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها أنهم هم أهل النبوَّة وحدهم، وأنَّ الوحي انقطع عن البشرية بعد نبيهم؛ فناسب أن يذكِّرهم الله تعالى أنَّ الكون جميعه يواصل التسبيح، وأنَّ المؤمنين يسبّحون إلى يوم الدين؛ والله تعالى ليس محتاجا لأحدٍ، بل الخلق هم المحتاجون في وجودهم ودوامهم إليه سبحانه.

- ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾: في رواية ورش بالجرِّ صفةٌ لله تعالى؛ ولقد وصف الله تعالى نفسه بـ﴿الْقُدُّوسِ﴾ مرتين في القرآن الكريم، في هذه الآية وفي سورة الحشر؛ أمَّا ﴿الْمَلِكِ﴾ فورد بصيغ مختلفة في كلام الله تعالى؛ ومعنى ﴿الْمَلِكِ﴾ أنه سبحانه المالك الحقيق للمُلك ولمن يملِك، وهو المتصرف في جميع مُلكِه، والمتفرّد بالجبروت؛ أمَّا ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾ فمبالغةٌ في التنزيه والطهارة، وهو سبحانه منزَّه عما يخطر ببال خلقه؛ و﴿الْمَلِكِ﴾ لإثبات الصفات العليَّة، و﴿الْقُدُّوسِ﴾ لنفي الصفات الدنيَّة؛ فأنى

للمتناهي أن يدرك اللامتناهي؟!

- ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾: كما جاء في السُّور التي شرع فيها بالتسبيح، فهو ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغلب ولا يُقهر، وهو ﴿الْحَكِيمِ﴾ الذي أتقن خلقَه، وجعل كلَّ شيء في مكانه وزمانه، بلا خلل ولا تفاوت. وفي جميع المسبِّحات من سورة الحديد إلى الجمعة جاءت الفاصلة بصيغة ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ إلاَّ في سورة التغابن بعدَها.

- وليس على الله في عزَّته أن يُظهر حكمته لخلقِه، وإذا فعل فذلك تفضُّلٌ منه سبحانه؛ وإنما عليهم هم أن يستسلموا له في جميع أمورِهم، سواءً أدركوا الحكمة أم لم يدركوها، وعليهم أن يخضعوا له في جميع أمره وإرادته وحُكمه؛ وهذا منتهى التوحيد.

التشغيل والتفعيل

- سورة الصف انتهت بقوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾؛ ومن تمام نعمة الله تعالى الذي أيَّدهم بنصرِه، وأظهرهم على أعدائهم، أن يسبِّحوه، فبُدئت سورة الجمعة بـ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾؛ والمناسبة بين النصر والتسبيح مطَّردة في القرآن الكريم: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ... فَسَبِّحْ﴾[سورة النصر]،

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي... كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾[سورة طه:25-33].

- في سورتي الجمعة والتغابن ورد فعل التسبيح بصيغة المضارع ﴿يُسَبِّحُ﴾، وفي سور الحديد، والحشر، والصف ورد بصيغة الماضي ﴿سَبَّحَ﴾؛ والمضارع يُفيد الاستمرارَ، أمَّا الماضي فيفيد التحقُّق؛ ولقد ربط البعضُ بين ورود القِتال في ثنايا السور التي بُدئت بالماضي، وعدم وروده في ثنايا السور التي بدئت بالمضارع؛ ولكن ما طالعته من توجيه ولمسات بيانية لا تُشفي الغليل، وتحتاج إلى مزيد بحث: فما هو الفرق إذن؟ يبقى السؤال جديرا بالبحث والاستقصاء.
- لقد استوحى بعض المفسّرين مناسبة هذه الصفات لمضمون السورة، فربطوا بين كلِّ اسم من أسماء الله الحسنى ومعنًى مما بُسط في بحر السورة الكريمة؛ غير أنَّ طول النظر والتدبُّر في مضمون الآيات يفتح لنا مناسبةً بين الآية الواحدة وجميع الأسماء والصفات الواردة في الاستهلال: الله، الرحمن، الرحيم، السبُّوح، الملك، القدُّوس، العزيز، الحكيم.
- عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنَّا عند رسول الله ﷺ فقال: «**أيعجزُ أحدكم أن يكسب كلَّ يوم ألف حسنة؟** فسأله سائل من جلسائه: كيف يكسب أحدنا ألف حسنة؟

قال: **يسبّح مائة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، أو يُحط عنه ألف خطيئة**»[رواه مسلم].

من الفكر إلى الفعل

- تسبيح العبد لله تعالى هو مكرمةٌ من الله تعالى له هو؛ وخيره وبركته ونفعه يعود عليه هو.
- من نعم الله أنَّ الكون جميعُه يسبّح لله ويخضع له، وإلاَّ لحدث خلل كبير، ولما استطاع الإنسان أن يعيش؛ ومن ثمَّ نحمد الله على تسبيح السماوات والأرض للملك القدُّوس، العزيز الحكيم.
- الله تعالى لا ينفعه تسبيحُنا، ولكن التسبيح ينفع المسبِّح ذاته، فهو المحتاج إليه سبحانه.
- اللهم إنا نسبّحك في اليوم مائة تسبيحة، فاكتب لنا ألف حسنة، وحطَّ عنا ألف خطيئة.
- للقراءة: «**الجامع العام في الأدعية والأذكار**» لطارق بن عاطف الحجازي؛ وطالع مقالتَه المفيدة بعنوان: «**المؤلفات في الأدعية والأذكار وتقويمها**».

قال الله تعالى:

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿2﴾

بذور المعنى

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾: هو وحده سبحانه الذي يرسِل الرسلَ، ويجتبي منهم من يَشاء لما يَشاء؛ وهو سبحانه الذي بعث محمدا ﷺ ﴿النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾[الأعراف:157] لقومه الأميين؛ ذلك أنهم ليسوا أهل كتابٍ، ولم يكن لهم أيُّ دين سماويٍّ سابقٍ، مثل اليهود والنصارى. وصفة الأمّية في غير رسول الله ﷺ وقومِه هي صفة نقصٍ لا يُحمدون عليها؛ ولكنَّها في حقه عليه السلام وفي حقّ ﴿النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ هي صفة كمال؛ ذلك أنها تُثبت أنهم لم يأخذوا كلامَ الله تعالى بالقراءة عمَّن سبقهم، ولا عن الديانات السابقة؛ وإنما

أخذوه من الله تعالى وحيًا يوحَى، وتعلَّموه منه سبحانه بلا واسطة من حضارات أو أمم أو ديانات؛ فهم بذلك لا يُتَّهمون بالنقل عن كتب الأوَّلين من أهل الكتاب: ﴿الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْءَانَ﴾[الرحمن:1]، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[العنكبوت:48].

- ﴿مِّنْهُمْ﴾: أي هو أميٌّ مثلُهم، أو هو منهم أي من العرب الأمّيين؛ و﴿مِّنْهُمْ﴾ لها دلالة حركيَّة قويَّة، في أنَّ رسول الله ﷺ لم يكن منفصمًا عن قومه، هو ﴿مِّنْهُمْ﴾ يحسُّ ما يحسُّون، ويفهم ما يقولون، ويدرك ما يميّزهم، ويعلم ما ينقصُهم وما هم فيه مخطئون؛ فهو ﴿مِّنْهُمْ﴾ لا «من غيرهم»، ولا هو غريبٌ عنهم.

- تفيد ﴿مِّنْهُمْ﴾ كذلك معنى أنَّ رسول الله ﷺ بشرٌ وهو من البشرِ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾[الإسراء:93]، فهو ﴿مِّنْهُمْ﴾، لا من الملائكة أو من عوالم أخرى غير البشر، لذات الحكمة سالفة الذكر.

- ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمُ ءَايَاتِهِ﴾: هي استجابة لدعوة سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين دعا اللهَ وهو يرفع القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمُ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة:129]؛ أي أنَّ رسول الله يتلو على قومِه، ومن خلالهم على العالَمين، آياتِ الله تعالى المبيَّناتِ، التي نزلت عليه وحيًا يُتلَى، رغم

كونه أمِّيًّا: ﴿لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[الرعد:30].

- ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: ينمّيهم بالإيمان، ويطهِّرهم مِن الذنوب، ويحثُّهم على العملِ الصالح؛ لتكون نفوسُهم زكيَّة زاكية؛ وخلافُ «زكَّى» في المعنى «دسَّى» أي دنَّس نفسَه ولطَّخها بالموبقاتِ؛ قال تعالى: ﴿قَدَ اَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[الشمس:9-10].

- ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: يعلّمهم رسولُ الله ﷺ ألفاظَ الكتاب، ومعانيه، وأحكامه؛ أمَّا ﴿الْحِكْمَةَ﴾ فهي ما كان من مقاصد الكتابِ، وكيفية إنزال المعاني إلى الواقع، والقدرة على توظيف ما تعلَّموه في تغيير ما بأنفسهم، وفي إصلاح ما بقومهم؛ أي هي الرشد بأبعاده كلِّها؛ ذلك أنَّ كثيرا مما يتعلَّمه الناس يعجِزون عن تحويله إلى واقعٍ حضاريٍّ، ويقصُرون أو يقصِّرون عن تمثُّلِهِ حركةً وحركيةً في مناحي حياتهم؛ وليس أبلغ مثالا على هذا العجز من المسلمين أوان تخلُّفهم وتبعيَّتهم.

- فسَّر البعض ﴿الْحِكْمَةَ﴾ أنها ما يؤدِّي إليه الاجتهادُ، وهو معنى بديعٌ؛ ذلك أنَّ الروية والجهد وطول التفكير، كلُّ ذلك يستتبعُ التوفيقَ والسَّدادَ والحكمةَ في العلم وفي العمل.

- والإنسان الواحدُ قد يَكتسب الحكمة في ظروفٍ، ويفقدها في ظروف أخرى؛ وكأنَّ الحكمة «نوتةٌ موسيقيَّةٌ» تُعزف

على المعنى وعلى تمثُّله في الواقع في آن واحدٍ؛ فإذا ما اختلَّت «النوتة» ارتفعت الحكمةُ، وحلَّ محلَّها السفهُ والضَّلال، والجهل والجهالة.

- ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: كان الأميُّون، وكان العرب، بل كانت البشرية جميعُها، قبل بعثة الرسول ﷺ، وقبل نزول الكتاب، وقبل تعليم الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿الَّذِينَ مَعَهُ﴾، وقبل تزكيتهم وتربيتهم؛ كانوا قبل ذلك في ضلالٍ وهلاكٍ وغيٍّ وباطلٍ وغفلةٍ، وعُدولٍ عن الحقّ وعن الصراط المستقيم؛ والله تعالى يمتنُّ على المؤمنين أن هداهم للإيمان، وأنزل إليهم نورًا وكتابًا مبينًا.

التشغيل والتفعيل

- الله تعالى «جرَّد محمدا ﷺ من كلّ تكلُّف لتعلُّم، وعن الاتصاف بتطلُّبٍ، ثم بعثه فيهم، وأظهر عليه من الأوصاف ما فاق الجميع»[القشيري]؛ ولا ريب أنَّ دلالة ﴿هُوَ﴾ تحمل جميع هذه المعاني وغيرها، فـ﴿هُوَ﴾ لا غيره، ﴿هُوَ﴾ الذي بعث نبيّه لهذا الشأن العظيم لا غيره.
- قدَّم الله تعالى التزكية على تعليم الكتاب في هذه الآية وفي آية آل عمران؛ أمَّا في سورة البقرة فقدَّم تعليم الكتاب والحكمة على التزكية؛ ولا ريب أنَّ السياق مؤثّر في التقديم والتأخير؛ ولكن يبقى إدراكُ السرّ في ذلك محلَّ اجتهادٍ

ونظر. والملاحظة الأساسية هي أن آيتي الجمعة وآل عمران فيهما يمنُّ الله تعالى على المؤمنين (الأمّيّين) بأن بعث فيهم رسول الله... الآية؛ أمَّا آية سورة البقرة فهي من دعاء سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ثم إنَّ فاصلة آيتي الجمعة وآل عمران واحدةٌ كما كان الترتيب واحدًا: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، أمَّا فاصلة آية البقرة فالفاصلة مختلفة كما الترتيب مختلف: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

- احتجَّ المشككون بقوله تعالى: ﴿بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً﴾ على أنَّ دعوته خاصَّة بالعرب الأمّيّين دون غيرهم؛ وهو دليل فاسدٌ، ومغالطة واهيةٌ؛ ذلك أنَّ القاعدة تقرِّر أنَّه «لا يلزم من تخصيص الشيء بالذكر نفيَ ما عداه»؛ ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾[العنكبوت:48]، يعمُّ ما يخطُّه بيمينه وبشماله، ولا يقتصر على ما يخطُّه باليمين فقط. ثم إنه تعالى قال عنه ﷺ مفنّدًا افتراءهم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِلنَّاسِ﴾[سبأ:28].

- تُقسَّم السيرة النبوية إلى فروع عدَّة، منها: المغازي، والشمائل، والنسب الشريف، والأخبار؛ ويبقى البحث في السيرة النبوية، من مدخل «تفعيليٍّ حركيٍّ حضاريٍّ» مطلبًا عزيزَ المنالِ، بُذلت فيه جهود، ولا يزال الحقل خصبًا ينتظر جهودا أخرى.

من الفكر إلى الفعل

- تدلُّ الآيات أنَّ تلاوة الكتاب مقدّمة للتزكية، والتزكية سابقة على تعلُّم الكتاب والحكمة.
- جهادُ العلم هو مهمَّة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولقد كان رسول الله ﷺ سيّد المتعلّمين من الله تعالى، وسيّد المعلِّمين للمسلمين، بل للناس جميعًا.
- الأميَّة في حقّ الناس مَنقصة، وفي حقّ الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ محمَدة؛ ذلك أنها دعاءٌ بالحال لله تعالى، الذي أخرجه من أمّيته وعلَّمه الكتاب والحكمة، فكان أعظم متعلّم، وعالم، ومعلّم.
- إذا ارتبط العبد بالله كانت كلُّ حاجاته إلى الله تعالى دعاءً بالحال.
- ضرورة العناية بالبحث التفعيليّ والحركيّ والحضاريّ في السيرة النبوية، من مدخل نموذج الرشد، بخاصَّةٍ حركية الفكر والفعل.
- للقراءة: «**زاد المعاد في هدي خير العباد**» لابن قيم الجوزية.

قال الله تعالى:

وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿3﴾

بذور المعنى

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾: ورد في معنى ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ أنهم الذين يأتون مِن بعد الأمّيّين إلى يوم القيامة؛ وورد أنَّ الرسول ﷺ حين أنزلت سورة الجمعة تلاها، ولما قرأ ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ...﴾ قال له رجل: يا رسول الله، مَن هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فوضع يده ﷺ على كتفِ سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «**والذي نفسي بيدِه، لو كان الإيمان بالثريا لناله رجلٌ من هؤلاء**»[رواه الترمذي]؛ فقال بعضٌ: هم الفرس؛ وقال القطب اطفيش: إنما هو تمثيل «بمن يأتي من العجم كالفرس والروم والبربر» وغيرهم.

- والرَّاجح أنَّ الذين تلاَ عليهم رسول الله ﷺ آيات الله هم الصحابةُ الكرام، وأغلبهم عربٌ، وفيهم فرسٌ وروومٌ وأحباشٌ وغيرُهم؛ وكلُّ هؤلاء كما في سورة الحشر إمَّا مِن المهاجرين وإمَّا من الأنصار؛ فيكون معنى ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ مفسَّرا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُوا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.
- ولا دليل على تخصيص قومٍ على قومٍ، ولا جنسٍ على جنسٍ؛ وإنما الآية عامَّة فيمن يأتي بعد محمد ﷺ، يؤمن به، ويحسُن إيمانُه؛ وصحابة رسول الله لا ينتهون إلى يوم القيامة، إذ الصُّحبة صفةٌ قبل أن تكون مجرَّد حضورٍ جسديّ ومكانيّ وزمانيّ؛ فكم من مُعاشر لرسول الله لم يكن صحابيًّا، وكم من آتٍ بعده ولم يره عَلَيْهِ السَّلَامُ هو من الصحابة، وله فضل الصُّحبة.
- قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ في أصلاب أصلاب أصلاب رجالٍ من أصحابي، رجالاً ونساءً من أمَّتي يدخلون الجنَّة بغير حساب؛ ثم قرأ: وآخرين منهم لـمَّا يلحقوا بهم**»[المعجم الكبير للطبراني].
- ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: عزَّ شأنه، وغُلِب شانئُه، فهو بالغُ العزَّة والقهرِ؛ وهو الحكيم في ذاته وفعله وقوله؛ فهو غالبٌ لا يُعجزه شيء، وهو قاهرٌ لا يردُّه عمَّا أرادَ رادٌّ، وهو حكيم لا يكونُ فعلُه أو قولُه عبثًا أو لعبًا؛ ولقد قال تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو يكلّمه: ﴿يَا مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[النمل:9].

التشغيل والتفعيل

- تحمل الآية بشارة غيبية للمستقبل، وهو أنَّ الإسلام، وما جاء به محمد رسول الله ﷺ من كتابٍ وحكمةٍ، كلُّ ذلك سيبلغ أقوامًا كثيرين في العالم، بمن فيهم العرب؛ الذين كانوا أوَّل مَن آمن، وكان منهم محمد ﷺ؛ واليوم لا يُحصى عدد أجناس العالم ممن آمن بالله وبرسوله ﷺ، وأعلن الشهادة، في جميع أصقاع الدنيا.
- في قوله تعالى: ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ عوض ﴿لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم﴾ أي سيتمُّ اللحاق بهم، ولكن لـمَّا يأت ذلك بعدُ؛ في هذا المعنى رحمةٌ من الله وفضلٌ أنَّ المسابقة لم تنته بعدُ، وفي الإمكان اللحاق بالصحابة إذا تم الاجتهاد والمجاهدة من كل مؤمن إلى يوم القيامة.
- روى أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**خير أمَّتي قوم يأتون مِن بعدي، يؤمنون بي، ويعملون بأمري ولم يروني؛ فأولئك لهم الدرجات العلى، إلاَّ من تعمَّق في الفتنة**»[رواه الربيع بن حبيب في الجامع الصحيح].

من الفكر إلى الفعل

- ليست الصحبة بعرق، ولا دم، ولا مال، ولا جاه، ولا سلطة... إنها نية وتوحيد، جهاد وهجرة، علم وعمل.
- قال رسول الله ﷺ: «**أمتي كالمطر، لا يُدرى أوله خير أم آخره**» فهي أمَّة مباركة، لا ينقطع منها الخير إلى يوم الدين.
- من حكمة الله تعالى أنه بعث في الأميين رسولا منهم يزكيهم ويعلّمهم الكتابَ والحكمة.
- تلقّي الحكمة لا يكون بحفظها فقط، ولكن بالعمل بفحواها ﴿وَمَنْ يُّوتَ الْحِكْمَةَ فَقَدُ اوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.
- اللهمَّ إنا نسألك أن نكون من خير أمتك، وألحقنا يوم القيامة برسولك، ونعوذ بك أن نتعمَّق في الفتنة، فنُحرم الخيريـَّـة والصحبة، وارض عنَّا يا عزيز يا حكيم.

قال الله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُوتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٤﴾

بذور المعنى

- ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُوتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ﴾: الفضل في اللغة ما زاد على الحاجة؛ ومن معانيه الإحسانُ ابتداءً بِلا علَّة، والله تعالى أحسن إلى خلقه جميعًا، ابتداءً واستئنافًا واختتامًا؛ لا واجب عليه جَلَّجَلَالُهُ، ولا أحد يتفضَّل عليه سبحانه؛ فكل المخلوقات محتاجة إليه، وهو لا يحتاج إليها.
- و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة خاصَّة إلى بعثِ النبيء ﷺ، واصطفائه على العالمين، واختياره لهذه المهمَّة العظمى؛ أو ﴿ذَٰلِكَ﴾

تفيد عمومَ ما تقدَّم مِن بعث النبيء ﷺ في الأمّيين، وحظوةِ هؤلاء بالتزكية والتعليم بين يدي رسول الله ﷺ، وكونِ الواحد موصوفا ومُعدًّا في اللاحقين بهؤلاء إلى يوم الدين.

- ﴿ذَٰلِكَ﴾ جميعُه فضلٌ من الله تعالى يتفضَّل به على من يشاء: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَآءُ﴾[آل عمران:84]، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ﴾[النور:46].

- ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾: فضل الله تعالى وعطاؤه على عباده لا يوصف إلاَّ بأنه فضلٌ عظيمٌ، بل هو الفضلُ العظيمُ؛ فهو سبحانه تفضَّل على جميع خلقه بما لا يُحصى مِن نعمٍ؛ وتفضَّل على الإنسان بما لا يقدَّر من كرمٍ، وتفضَّل على المؤمنين بما يعجز الواصف عن وصفه من جليل العطاء والهداية والمنن، وما خصَّهم به من جميل المقام في الدنيا، والمصير إليه سبحانه ليوم الدين: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾[يونس:60]، ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُومِنِينَ﴾[آل عمران:152].

التشغيل والتفعيل

- كلُّ صاحب فضل إنما فضله من غيره؛ إلا الله تعالى فضله من ذاته لا من غيره؛ ولذلك لا يُسأل إلاَّ هو سبحانه: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾[النساء:32]، ﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ

اللهِ﴾[الجمعة:10].

- فضل الله تعالى قد يناله العبد بسبب أو بغير سبب؛ وهو جميعه من الله الكريم المنان، وللعبد أن يسأله ويدعوه بالمقال وبالحال؛ روي في حديث أنه «أتى رسولَ الله ﷺ أعرابيٌّ، فشكا إليه الجوعَ، فدخل رسول الله ﷺ ثم خرج، فقال: **ما أجد لك في آل محمد طعاما أطعمكاه**. فقال أحدهما: فأهدى له شاة مَصليةً، وقال الآخر: حفنة من ثريد، فوضعت بين يديه، فقال: **اِطعَم**. فطعِم، فلمَّا شبع قال: يا رسول الله، أصابني ما أصابني، فأتيتك، فرزقني الله هذا على يديك، أفرأيت إن أصابني هذا، ولستُ عندك، فكيف أصنع؟ قال: قل: **اللهمَّ إنّي أسألك من فضلك ورحمتك، فإنَّه لا يملكها إلاَّ أنت، فإنَّ الله رازقك**»[رواه الضبي في كتاب الدعاء].

من الفكر إلى الفعل

- من جوامع الكلم التي أوتيها رسول الله ﷺ، والتي تجمع الفضل في أسلوب بليغ، وتجعله محل دعاء لله تعالى، قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة، والنجاة من النار**».
- تفضَّل الله جَلَّ جَلَالُهُ على عباده المؤمنين، فهداهم ونصرهم؛ ليكونوا شهداء على الناس، وليتكرَّموا على الخلق بالفضل والكرم والعطاء؛ فإذا فقد المؤمن القدرة على العطاء، وصار عالة على الناس، يَطعم من فضلِهم، ويعيش على عطاياهم؛ فلا ريب أنه سيكون غير قادر على هدايتهم للحقّ؛ وهذه من أعظم الفتن في عصرنا.

قال الله تعالى:

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِيسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِئَايَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿5﴾

بذور المعنى

- ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾: ضربَ الله مثلا للذين يحملون الخير ولا ينتفعُون به، فهم حاملون للتوراة بالقراءة وبالكتابة، وبالحفظ وبالترديد، وبالتفسير وبالشرح ـ خلاف الأميين من العرب الذين لا يقرؤون ـ؛ لكنَّهم مع ذلك لا يعمَلون بما جاء فيها من عقائد وأحكامٍ ورسائل من الله تعالى.

- ومما لم يعملوا به وأخفَوه وحرَّفوه مما جاء في التوراة: نبوَّة محمد ﷺ، ولقد بشَّر بها موسى وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. كما جاء في سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ

إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[الآية 6].

- ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾: مثلُ هؤلاء القومُ كمثل الحمار الذي يحمل كتبًا قيِّمة ذات شأن وقدر، ولكن ليس لأنه حمَلها أو حمَّلها على ظهره سيصير عالما بما فيها؛ فهو لا ينتفع بها ولا يَنفع غيره؛ وهذا شأن الذين يحملون التوراة ولا تنفعهم في شيء، وهو عامٌّ لكلِّ من لا ينتفع بعلمه.
- السِّفر في اللغة هو الكتابُ الكبيرُ، وجمعه أسفارٌ، وتوظيف لفظ الأسفار عوض الكتب فيه إشارة إلى كونها تسفُر بالحق وتوضّحه؛ وفيه نكتة أخرى تنبهتُ إليها وهي أنَّ «الأجزاء الخمسة الأولى من التوراة تسمَّى أسفارا» فتوافق اللفظ مع المعنى بلاغةً وبيانًا.
- ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾: هؤلاء الذين كذَّبوا بآيات الله اليومَ، كما كذَّبوا بالتوراة من قبلُ، فلم يؤمنوا بالنبيء الأميِّ المذكور عندهم في توراتهم؛ ساءَ مثلا هؤلاء القوم.
- ولقد ذكر الله تعالى في سورة الصفِّ بيان هذا التكذيب، وبأنهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[الآية 6].

- ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: الآية تفيد العمومَ، أي كلُّ من كان من الظالمين فإنَّ الله لا يهديه ولا يوفّقه إلى الخيرِ، ما دام هو قد ارتضى الظلمَ والكذبَ منهجًا وسبيلاً؛ وهي كذلك خاصَّة بهؤلاء القوم؛ لأنَّ ظلمَهم شديدٌ ومبيَّتٌ، وله آثارٌ وخيمةٌ على البشرية جمعاء؛ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾[الأنعام:58]، وهو سبحانه ﴿لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[الشورى:40]، وقد لعنهم بقوله: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[هود:18].

التشغيل والتفعيل

- ليس في الآية ذمٌّ لجنسِ الحمير، ولا يستحقُّ الحمار الذمَّ لأنَّـه يحمل العلم ولا ينتفع به؛ ذلك أنَّ وظيفته التي خُلق لها هي الحملُ وليسَ الفهمُ والعلمُ، ولا الإيمان والعملُ؛ فكلُّ مخلوقٍ محاسَبٌ على حسبِ وظيفته التي خُلق لها، وهو قد أدَّاها على أكمل وجهٍ؛ والإنسان وظيفته أن يؤمن بالله تعالى، وأن ينتفع بما علَّمه الله سبحانه؛ وإذا حمل العلم ولم ينتفع به، وإذا نقل الحقَّ ثم لم يؤمن، كان أهلاً للذمّ والتعييرِ.
- لم يشبَّه اليهود بالحمير في الآية، وإنما شبَّه الله تعالى صورةَ الذي يحمل العلم ولا ينتفع به بصورة الحمارِ الذي

يحمل الأسفار ولا تنفعُه؛ فهو تمثيل لصورةٍ بصورةٍ، لا تشبيه إنسانٍ بحيوانٍ وتعييره به؛ ذلك أنَّ الإسلام لا يجيز الشتمَ والسبابَ؛ ورميُ الناس بأسماء الحيوان شكلٌ من أشكال الفُحش في القول؛ حاشا القرآن الكريم أن يصدر منه.

- مثلُ الذين حمِّلوا القرآن ثم لم يحملوه أشنعُ من مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها؛ ذلك أنَّ شأنَ القرآن أعظمُ، وأنَّه لم يحرَّف، وأنَّه لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه؛ وأنه أكثر إسفارًا ووضوحًا وبيانًا من باقي الكتب السماوية؛ وهو خلاف التوراة أوان نزول القرآن، كان فيها تحريفٌ وتزييفٌ.
- في قوله تعالى في فاتحة سورة الصف: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ مناسبةٌ وبيانٌ وتفسيرٌ لقوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ فكلا الآيتين تعالجان السَّفه، وفصلَ القول عن الفعل، ومخالفةَ الباطن للظاهر، والدعاوى الكاذبة التي لا تتحقَّق؛ وهذا وبال عظيم إذا أصاب فردا أعاقه عن الحقِّ؛ وإذا أصاب أمَّة ضربها في مقتلٍ.
- الانفصام بين العلم والعمل يعرف في «نموذج الرشد» باسم «سؤال الأزمة» للمسلمين في القرون المتأخرة، وقد أصيبوا بداء القولِ بلا فعل، والقولِ المخالف للفعل، وبحمل العلم حفظا وترديدا وعدم العمل بما تحمَّلوا من حقٍّ...

من الفكر إلى الفعل

- أعظم الظلم الشرك: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.
- إنما كان العلم ليُعمل به، ومن لم ينفعه علمُه كان وبالاً عليه، وجاز أن يشبَّه حاله بحال الحمار يحمل أسفارا.
- ضربُ الأمثال من أعظم أساليب التربية، والدعوة، والخطابة، وهو الذي يؤسس للصورة الذهنية الإدراكية الباعثة للعمل.
- يحرم شرعًا، ويمنع تربويا أن يوسم المتعلم بأسماء الحيوانات، أو يوصف بأوصافها.
- في اللغات الآلية العلمية المعاصرة يغيب المجاز، والأمثال، لتحل محلها الأرقام، والاختزالات، المنافية لروح الإنسان.
- للقراءة: «**اقتضاء العلم العمل**» للخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد. و«**اللغة والمجاز بين التوحيد ووَحدة الوجود**» لعبد الوهاب المسيري.

قال الله تعالى:

قُلْ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿6﴾ وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدَاً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿7﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿8﴾

بذور المعنى

- ﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾: الأمرُ من الله تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للذين انتسبوا إلى اليهود، وهو النداء الوحيدُ الذي ورد في القرآن الكريم خطابا لليهود بـ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾؛ وأغلب ما جاء في حوار اليهود والنصارى: ﴿قُلْ يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾؛ وفي اختيار فعلِ «هادَ، يهودُ» الذي يعني التوبةَ والعودةَ إلى الحقِّ جمالٌ وبلاغةٌ؛ أي يا أيها الذين تدَّعون أنكم على الحق، ثم زعمتم أنكم أولياء لله من دون

الناس، وأنكم هادون عائدون إلى الله، تمنَّوا الموت.

- ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ﴾: كانت اليهود تقول ﴿نَحْنُ أَبْنَآءُ اللهِ وَأَحِبَّآؤُهُ﴾، وكانوا يقولون: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾[آل عمران:75]؛ وبالجمع بين المعنيين يفسَّر قولهم: نحن أولياء، وأقرباء، وأحبَّاءُ لله من دون الناس، وفي سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَآءُ اللهِ وَأَحِبَّآؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾[81].

- ولم يقتصر ادعاؤهم على أنهم أولياء لله وكفى، لكن لحقدهم ونيَّة الشرِّ التي يُضمرونها للعالمين مَنعوا الولاية عن ﴿النَّاسِ﴾: ﴿مِن دُونِ النَّاسِ﴾؛ فهذه هي الأنانية، وهذا حبُّ الذات ينخُر ضمائرهم؛ والحالُ أنَّ الجواب أنَّ الله سبحانه هو ﴿رَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ جميعًا، وليس ربًّا وملكًا وإلهًا لقوم دون آخرين.

- ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾: إن كنتم صادقين في دعواكم أنكم أحبَّاء لله من دون الناس فتمنَّوا الموت لتلقوا الذي تحبُّونه، ولتنتقِلوا إلى فُسحة الجزاء والجنَّة، من دار الكدرِ والقلق إلى دارِ الصَّفاء والطمأنينة.

- ﴿وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً﴾: هي حقيقةٌ كونيةٌ من الله تعالى تحدَّاهم بها، وهو أعلم بهم من أنفُسهم؛ تحدَّاهم سبحانه أن يتمنَّوا الموتَ، ثم قرَّر أنهم لا يتمنَّونه أبدا، ما داموا أحياء، وآية سورة البقرة تفسّر لنا هذا المعنى، قال تعالى:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾[الآية 96]؛ حتى ولو كانت حياةً خسيسةً لا يستحق ولا يُستأهل أن تُعاش، فهم حريصون عليها مخافة الموت.

- ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: أي بما عملوا وبما كسبوا، ومنها ما قدَّمت قلوبهم من اعتقادٍ، وألسنتُهم من قولٍ، وجوارحُهم من فعلٍ؛ وكُنِّي جميعُ ذلك بـ«ما قدَّمت الأيدي»؛ لأنَّ العمل غالبًا ما يُنسب إلى الأيدي.

- فهم بما كسبوا لا يرجون رحمة الله، وإنَّما يتوقَّعون عذابَه، ولذا فهم لا يتمنَّون الموت؛ أمَّا من كان على الحقّ، فإنَّه يتمنى لقاء الله سبحانه، يقول الله تعالى عن المؤمنين: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾[العنكبوت:5]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ﴾[البقرة:218].

- ﴿وَاللهُ عَلِيمُۢ بِالظَّالِمِينَ﴾: الله تعالى أعلم بالناس من أنفُسهم، وهم عموما أعلم بما يُسرُّون وما يعلنون، وما يُخفون وما يظهرون؛ وهو سبحانه عليمٌ بهؤلاء الذين هادُوا وظلموا؛ وعليمٌ بما يختلج في قلوبهم، وما يدور في عقولهم، وما تقوله ألسنتُهم، وما تجترحُه أيديهم.

- ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾: التعبير بالفِرار للدلالة على الحرص الشديد أن لا يكونوا حيثُ يكون الموتُ، أو أنهم يحترزون حتى عن احتمال أن يلقوا

الموت أو يلقاهم؛ ولذا فهم يخافون القتال كما في سورة الحشر: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾[الآية 41]، وهم يتخذون الأسباب ليعيشوا وقتًا طويلا، ويتجنَّبون ذكر الموت، والمؤمن خلافَ ذلك مأمور بذكر الموت في كلِّ حينٍ، وفي الحديث الشريف: «**أكثروا ذكر هادم اللذات**». ولو أنهم عقلوا وعلموا وآمنوا لعرفوا أن لا مهرب لهم من الموت: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[النساء:78].

- ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: الرجوع إلى الله تعالى، عالم الغيب والشهادة، للحساب وللجزاء، هو حقٌّ لا ريبَ فيه؛ فهو سبحانه يحصي على الصالح عملَه، ويحصي على الطالح عملَه، حتى إذا جاء الموتُ، وظهرُ أمرُ الله تعالى، نال كلٌّ جزاءَه الذي يستحقُّه، عدلا من الله جَلَّ جَلَالُهُ.

- ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: مِن الشرك والمعاصي؛ والفصل بين ما تقولون وما تعملون؛ وجحودُكم بنبوَّة محمد ﷺ وقد بُشّرتم بها عندكم في التوراة فأخفيتموها وأنتم تعلمون: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا. وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[آل عمران:30].

التشغيل والتفعيل

- كيف نؤسِّس لخطاب حكيم، وموقفٍ سليم، مع اليهود ومع أهل الكتاب بعامَّة؛ من منطلق قوله تعالى: ﴿قُلْ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ هَـادُوا...﴾ في ضل التعقيدات السياسية والدولية اليومَ؟ ليس الجواب نظريا فقط، ولكنه يكتسي صيغةً عمليَّة حضاريَّة، لا يرتقي المسلمون اليومَ إليها للأسف.
- في سورة البقرة قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَّتَمَنَّوْهُ أَبَـدَاَم﴾، وفي سورة الجمعة: ﴿وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداَم﴾؛ فدعواهم في الأولى أنَّ الدار الآخرة خالصةٌ لهم من دون الناس، ودعواهم في الثانية أنهم أولياء لله من دون الناس؛ ولقد اجتهد العلماء في بيان الفرق، وممن توسع في ذلك الإمام الرازي في «**مفاتيح الغيب**»؛ ولكن، ما قرأته لا يُشفي الغليل، ولا يقطع الشكَّ باليقين؛ ويبقى الموضوع مجالا للبحث: ما الفرق؟
- قال رسول لله ﷺ بيانا للتحدّي الوارد في الآية لليهود، إنهم لا يتمنَّون الموت أبدا: «**والذي نفسي بيده، لا يقولها أحد منكم إلاَّ غصَّ بِريقِه**»[رواه البيهقي في دلائل النبوَّة]، فلو كانوا على حقٍّ لقالُوها، مجرَّد القول، ولماتَ من قالها، وإذا لم يمت اتخذوا ذلك دليلاً على صدقهم؛ ولكن هيهات والمتحدّي هو الله تعالى، وناقل التحدّي هو رسوله ﷺ.
- في حديث عن سمرة مرفوعا، قال: «**مثل الذي يفرُّ من الموت**

كمثل الثعلب تطلبه الأرض بدَين، فجاء يَسعى حتى إذا أعيا وانبهر دخلَ جحره، فقالت له الأرض: يا ثعلب دَيني. فخرج له حصاص، فلم يزل كذلك حتى تقطَّعت عنقه، فمات»[رواه الترمذي].

- عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: **«أكثروا ذكر هادم اللذَّات؛ فما ذكَره عبدٌ قطُّ وهو في ضيقٍ، إلاَّ وسَّعه عليه؛ ولا ذكره وهو في سعةٍ، إلا ضيَّقه عليه»**[رواه الترمذي].

من الفكر إلى الفعل

- في الحديث الشريف: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**. فقلت: يا نبي الله، أكراهية الموت؟ فكلنا نكره الموت، قال: **ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بشّر برحمة الله ورضوانه وجنّته أحبَّ لقاء الله، فأحبَّ الله لقاءه، وإنَّ الكافر إذا بشّر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله فكره الله لقاءه**» .
- ذكر الموت، وهاذم اللذات، يفعل فعل المحرار (الترمومتر)، فهو يضبط إيقاع الحياة، بين خوف ورجاء، بين سعة وضيق؛ وهو من أعظم الذكر وأنفعه وأجلّه.
- معرفة اليهود في القرآن الكريم تساعد على إدراك حقيقتهم اليوم في الصراع الحضاري؛ هو واجب حضاريٌّ لا مهرب منه.
- للتوسع: في مؤلفات عبد الوهاب المسيري منها «**من هم اليهود؟ وما هي اليهودية؟: أسئلة الهوية وأزمة الدولة اليهودية**»، «**الصهيونية وخيوط العنكبوت**»، «**الصهيونية والحضارة الغربية الحديثة**»، «**اليهود في عقل هؤلاء**».

قال الله تعالى:

يَآ أَيُّـهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَّوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوا اِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿7﴾

بذور المعنى

- ﴿يَآ أَيُّـهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: نداءٌ للذين آمنوا بالله تعالى، ولم يكونوا كالذين حمِّلوا أمانة الإيمان والعلم فلم يحمِلوها؛ وإنَّما ينادى من يسمع النداء ويستجيب: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾[الأنعام:36]. وهو النداء الوحيد بـ﴿يَآ أَيُّـهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في سورة الجمعة.
- ﴿إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَّوْمِ الْجُمُعَةِ﴾: حين يؤذَّن لصلاة الجمعة، حتى ولو كان نداءً من مؤذّن واحدٍ، كما كان الحال في عهد رسول الله ﷺ؛ فاستجيبوا للنداء، وسابقوا إلى الصلاة؛ سواء أكانت صلاةَ جمعة أم أيَّ صلاةٍ أخرى.

- لعلَّ المناسبة بين «حقيقة الذين هادوا» و«النداء للجمعة»، هي أنَّ لليهود يومًا هو يوم السبت، وللنصارى يومًا هو يوم الأحد، فجُعل للمسلمين يومٌ هو يوم الجمعة، كما في الحديث الشريف.

- ﴿فَاسْعَوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾: حين تسمعون النداءَ أجِدُّوا في إدراك الصلاة؛ و﴿إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾ أي إلى الصلاة، والوعظ، والخطبة، والدعاء؛ وإلى حيث تذكرون الله ذكرا كثيرا. والأمر بالسعي دليل على وجوبِ الجمعة؛ حين تتوفَّر شروطها.

- بهذه الآية فرَض الله سبحانه صلاة الجمعة على المسلمين؛ وهي ركعتان مع خُطبتين قبلهما، بدل صلاة الظهر من يوم الجمعة؛ وهي فرضُ كفاية عند بعضٍ، وفرض عين عند آخرين؛ إذا تركها الناس جميعًا هلكوا، وإذا تركها الفرد فجائز ولم يأثم، ما دام تركُه لها لعذرٍ من سفرٍ أو مرضٍ أو حاجةٍ ضرورية للمسلمين يتولاها، من مثل حراسة الثغور، والقيام على المرضى الذين هم في حالة حرِجة.

- ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾: اتركوا البيع وكلَّ معاملةٍ بالمال، من أيّ نوعٍ كانت: بيع، أو إجارة، أو رهن...؛ «وإن تم البيع بعد سماع الأذان صحَّ العقدُ وعَصَوا»، أو «بطُل البيع وعصَوا»، خلافٌ بين الفقهاء. وتركُ البيع وقت الجمعة واجبٌ، وإتيانه إثمٌ؛ وليس نهيًا للتنزيه والكراهة فقط.

- ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: ذلكم الأمرُ المذكور من السعي إلى ذكر الله، وترك البيع للجمعة، خيرٌ لكم من كلِّ فعل تأتونه في ذلك الوقت، وهي خيرٌ لدنياكم وآخرتكم.
- ومن خيريتها عظيمُ أجرها عند الله تعالى، وكونُ وقتها وقتَ إجابةِ الدعاء، وأنها تجمع المؤمنين على صعيدٍ واحدٍ، وهي سببٌ لتنظيم صفِّ المسلمين والجمع بين قلوبهم؛ وأفضالها لو عدَّت لما انتهى العدُّ. وفي مصادر السنَّة والفقه أبوابٌ وكتبٌ مفصَّلة في صلاة الجمعة.
- ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: إن كنتم من أهل العلم والإدراك، وممن يفرّق بين الخير والشر، وبين النفع والضرّ؛ فستتبيَّنون فضل الجمعة والخير العميم الذي تنشره بين المسلمين.

التشغيل والتفعيل

- ذكر بعضُ المفسرين أنَّ هذه الآية هي قلبُ السورة، وهي المقصود منها؛ وما قبلها مقدّمات وتوطئات؛ لكن أخالف هذا الرأي، ذلك أنَّ ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا﴾، و﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا...﴾ كذلك هي لبُّ السورة وقلبُها، إضافة إلى أحكام الجمعة في هذه الآية العظيمة؛ ولا يقول أحدٌ إنَّ تسمية السورة دليلٌ على الغرض من السورة دون غيرها من المواضيع. للبحث.

- يقول الرسول ﷺ: «**خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة**»[رواه الترمذي]، ويقول في حديث آخر: «**أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا، فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضُّي لهم قبل الخلائق**»[رواه مسلم].
- أمرُ الله تعالى المؤمنين بالسعي إلى الصلاة يوم الجمعة، وأمرُه سبحانه بترك البيع المباح لأجلها؛ دليلٌ على وجوبها وفرضيتها؛ ودلَّت أحاديث كثيرة على ذلك، منها ما روي عن أبي هريرة وعبد الله بن عمر أنهما سمعا النبي ﷺ يقول على أعواد منبره ﷺ: «**لينتهينَّ أقوامٌ عن ودعهم الجمعات أو ليختمنَّ اللّه على قلوبهم، ثم ليكونُنَّ من الغافلين**»[رواه مسلم].
- نهى الشارع عن الهرولة إلى صلاة الجمعة وإلى الصلاة بعامَّة، قال رسول الله ﷺ: «**إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فأتمُّوا**»[متفق عليه]. فالسعي المأمور به في الآية بمعنى الجدِّ في الإدراك، والسعيُ المنهيُّ عنه في الحديث هو الجريُ والهرولة. فلا تناقض.
- النهي عن البيع وقت الصلاة يشمل كلَّ عمل مُلهٍ مما يعطل

المسلمين عن إدراك صلاة الجمعة، من مثل تعليمٍ وصناعةٍ، ولعبٍ ورياضةٍ؛ ويجب أن يكون الشاغل للناس في ذلك الوقت القصير هو الصلاة لا غيرها.

- تقدَّم فرض صلاة الجمعة على نزول سورة الجمعة؛ وقد فرضها رسول الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، في أوَّل يوم جمعة بعد الهجرة، وأقامها في دار لبني سالم بن عوف؛ وصلاَّها أهلُ المدينة قبل قدوم رسول الله ﷺ إليهم. فهي مفروضةٌ بالسنَّة قولاً وفعلًا، وجاءت الآية لتثبيت الحكم وترسيخه.

من الفكر إلى الفعل

- أمرنا بصلاة الجمعة للوجوب لا للندب.
- النهي عن ترك التجارة، واللهو، وكل ما يشغل عن الجمعة للوجوب لا نهيا للتنزيه.
- العناية بالجمعة صلاةً، وذكرا، ونشرا للخير، ثم بعد الصلاة: تجارةً، وابتغاءً لفضل الله... كلُّ ذلك مما أوكل به المسلمون.
- في صحيح البخاري: إنَّ رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: «**فيه ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم وهو قائم يصلى يسأل الله تعالى شيئا إلاَّ أعطاه إياه، وأشار بيده يقلّلها**».
- للقراءة: «**شرح النيل وشفاء العليل**» لقطب الأيمة امحمد بن يوسف اطفيش، جزء الصلاة. و«**الفقه على المذاهب الأربعة**» لعبد الرحمن الجزيري.

قال الله تعالى:

فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿10﴾

بذور المعنى

- ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: بعد أن يفرُغ الناسُ من صلاة الجمعة أمرَهم الله تعالى أن ينتشروا في الأرض، ويتفرَّقوا لقضاء مصالحهم.
- وفي حكمِ الانتشارِ قال البعض ليس واجبًا وإنما هو للندب، وقال آخرون بوجوبِ الانتشار؛ وكان بعضُ الصحابة إذا أتم الصلاة خرج إلى السوق لوقت ولو قصيرٍ، ثم عادَ إلى المسجد، وحين سئل قال: رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك. ويمكن أن يُفهم أنَّ الانتشار للفرد مباحٌ، أمَّا لمجموع الأمَّة فواجبٌ كفائيٌّ فيما فيه إعمارُ حركة الحياة.
- ﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾: أي اطلبوا فضلَ الله الدنيويّ،

وهو المنافعُ التي تستقيم بها حياتُكم، كنايةً عن التجارة لقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾[المزمل:20]؛ ومن فضل الله طلبُ العلم، وفعلُ الخيرات، وإدارةُ أمور الناس، والراحةُ، وحقوق الأهلُ، وزيارةُ الأقارب والأرحام... وغيرها.

- ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾: الآية احتراسٌ من أن ينصبَّ الناس في الأشغال الدنيوية بما ينسيهم ذكر الله تعالى؛ وتحذيرٌ أن تشغلهم وظائفهم عن الصلوات المفروضة، وعن الذكر المتواصل؛ فإنَّ المفلح من كان قلبُه مع الله جَلَّجَلَالُهُ، وهو في مفاصل الحياةِ عاملٌ فعَّالٌ، مجدٌّ ومجتهدٌ؛ غيرُ منفصل عن الناس، ولا منعزل عن شؤون الدنيا.
- والمسلم ذاكرٌ لله تعالى في جميع الحالات، سواءً أكان في المسجد أم خارجَها، فلا فصلَ ولَكنَّه الوصلُ، وكلُّ ما كان مصبوغًا بالتوجُّه إلى الله تعالى، حتى ولو كان لذَّةً ومتعةً في حلالٍ، هو لله تعالى، وعليه أجرٌ ومثوبةٌ؛ وما كان لغيره فهو معصيةٌ، حتى ولو كان صلاةً أو حجًّا أو صيامًا.
- العبادة الوحيدة التي أُمِرنا بالإكثار منها هي «الذكرُ»، ذلك أنها لا تشغل الذاكر عن أعماله الأخرى؛ فالذكر ملازمٌ للإنسان في كلِّ الحالات؛ عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «إنَّ الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلاَّ جعل لها حدًّا معلومًا، وعذر أهلَها في حال العُذر، غير الذكر؛ فإنَّ الله لم يجعل له حدًّا ينتهي إليه»[ابن كثير: التفسير].

- ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: بانتشاركم في الأرض بعد الصلاة، وبابتغائكم من فضلِ الله تعالى، وبالسعي في النافع للخلق والدين والدنيا، وبذكركم الله جَلَّجَلَالُهُ ذكرًا كثيرًا تنالون الفلاح؛ وبتضييعكم ذلك يكون نصيبكم الخسرانُ؛ فاختاروا أيَّ السبيلين أقوم.

التشغيل والتفعيل

- في الإسلام ليس ثمة تفريقٌ بين دنيًا وآخرةً، بين ما هو لله وما هو لقيصر؛ بل العبادةُ هي كلُّ ما كان لوجهِ الله تعالى، ممَّا لم يحرّم الله سبحانه، وما كان في مصلحةٍ كليةٍ أو غالبةٍ. والاشتغال بالأسبابِ في الإسلام عِبادةٌ، لأنَّ العبادات الواجبة لا تتمُّ إلاَّ بها، وما لا يتمُّ الواجبُ إلاَّ به فهو واجبٌ.
- ليس الذكر مجرَّد حالةٍ طارئةٍ على الإنسان، أو هو محصورٌ في مكانٍ مخصَّص، أو زمانٍ معيَّن؛ بل هو حالةٌ دائمةٌ دائبةٌ تلازِم قلبَ الإنسان، وفكرَه، ولسانَه، وجوارحَه؛ بحيث لا يرى المسلمُ شيئا إلاَّ ويرى الله معَه: مهلّلا، مسبّحا، شاكِرا، حامِدا، مستغفِرا، موحّدا، مصلّيا...
- والآية دالَّة على أنَّ الحرصَ على جانب دون آخرَ، وعلى أمرٍ من الله على حساب آخرَ، هو سببٌ في الهلاكِ؛ بل الأوامر

تؤخذُ كاملةً غير منقوصة، فالذين يحرصون على الصلاة مثلا، ويكسلون في طلبِ الرزق يكونون غير مُفلحين، والذين يهتمُّون بطلب الرزق على حساب الصلاة والذكر الكثير لله يسبِّبون هلاكا لهم ولأمَّتهم؛ وهكذا أحكام الشرعِ لا تنفصم.

- أحوال الذكر ثلاثة: تارةً يكون بالقلب واللسان معًا، وذلك أفضلُ الذكر وأكملُه؛ وتارةً يكون بالقلب وحدَه، وهي الدرجة الثانية؛ وتارة يكون باللسان وحدَه وهي الدرجة الثالثة؛ قال الحافظ ابن حجر في «**فتح الباري**»: «ولا يُشترط استحضارُه لمعناه؛ ولكن يُشترط ألاَّ يقصد به غير معناه، وإن انضاف للنطق الذكرُ بالقلب فهو أكمل»؛ ثم إنَّ إشغال اللسان بالذكر مانعٌ أن ينشغل بغيرِه، وقد يصير عادةً، فيكون تارةً بالخشوع، وتارة بالعادة.

من الفكر إلى الفعل

- في صحف إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «على العاقل أن لا يكون ظاعنا إلا لثلاث: تزوُّدٌ لمَعادٍ، أو مرمَّة لمعاشٍ، أو لذَّة في غير محرّم».
- اشغل لسانك بذكر الله سبحانه حتى لا يشغلك بما لا يعني.
- ابتغاء الخشوع في الصلاة واجبٌ، وحضور البال مع الذكر خارج الصلاة مُستحبٌّ.
- ذكرُ الله تعالى يستغرق جميع حالات الإنسان، وأزمنته، وأمكنته: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾، ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.
- للقراءة: «**إحياء علوم الدين**» لأبي حامد الغزالي. «**الزمن الصبغة والأزمنة المهيمنة**» لمحمد باباعمي.

قال الله تعالى:

وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿11﴾

بذور المعنى

- ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾: لهذه الآية سببُ نزولٍ مفسِّر لمعناها، فقد روى جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بينما نحن نصلي مع النبيء ﷺ، إذ أقبلت عيرٌ تحمِل طعامًا، فالتفتوا إليها، حتَّى ما بقي مع النبيء ﷺ إلاَّ اثنا عشر رجلاً منهم أبو بكر وعمر، فنزلت هذه الآية...» فقال النبيء ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، لو تتابعتم حتى لم يبق أحدٌ منكم؛ لسال بكم الوادي نارًا**»[ابن حجر: فتح الباري].
- انفضَّ الجمعُ إلى الشيءِ إذا تفرَّق وذهب إليه، وانفضُّوا إلى التجارة مالُوا إليها وقصدوها؛ والضميرُ في ﴿إِلَيْهَا﴾

عائدٌ إلى التجارة؛ لأنها الأهمُّ عندهم وفي تقديرهم؛ والانفضاضُ إلى اللهو من الصلاة نادرٌ وشاذٌّ وليس قاعدة في واقع الصحابة زمن نزول الآية؛ غير أنَّه في أحوال خفوت الإيمان من المجتمعات يتحوَّل إلى حالةٍ دائمة.

- ولقد تكرَّر انفضاض المصلّين عن الصلاة إلى التجارة تارةً، وإلى اللهو تارةً أخرى، ولعلَّ ﴿أَوْ﴾ تفيد تقسيم أنواع المنفضّين «إذ يكون بعضهم من ذوي العائلات خرجوا ليمتاروا لأهلهم؛ وبعضهم من الشباب لا همَّة لهم في الميرة، ولكن أحبُّوا حضور اللهو» فانفضُّوا.
- ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾: أي بقي رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر، وهو يخطُب؛ أو قائمًا للصلاة؛ وكذا من كان معه من الباقين.
- ولقد كان عَلَيْهِ السَّلَامُ حليمًا مع المنفضّين، إذ لو عنَّفهم أو دعا عليهم، لكانت النتيجة وخيمةً في حقّهم؛ وهذه حالةٌ من حالات صبره على الدعوة والتربية والهداية، صلى الله عليه صلاة كاملة شاملة.
- ﴿قُلْ مَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾: ما عند الله في الصلاة والخطبة وغيرهما، من أجرٍ وثوابٍ، وتوفيقٍ ورزقٍ؛ وغير ذلك مما لا يحصى من النعم؛ ما عند الله خيرٌ وأفضلُ من اللهو الذي يشغلكم عن الواجب وعن الأولويات، من طربٍ ورياضةٍ جائزةٍ وغيرها؛ وهو أفضل كذلك من التجارة التي أسرعتم إليها مخافة الفقر، وطلبا للرزق.

- قدَّمت الآية اللهو على التجارة، رغم أنه في مطلع الآية قُدِّمت التجارة على اللهو؛ ذلك أنَّ اللهو أكثرُ مذمَّة، والمقام مقام الذمِّ، والذي انفضَّ إلى اللهو أعظمُ ذنبًا من الذي انفضَّ إلى التجارة؛ وجميع ذلك محرَّم عند الله تعالى. وفي الآية أعيدت ﴿مِّنَ﴾ لأنَّ كُلاً منهما مستقلٌّ بالذم، ولبُعد اللهو عن التجارة في الحكم والمعنى.
- ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾: ما دام تركُكم للصلاة طلبًا للرزق، فاعلموا أنَّ الرزق من الله، وهو خير الرازقين؛ فاطلبوا الرزق من بابِه؛ وبابُه أن تستجيبوا لنداء الصلاة؛ حتى إذا قُضيت انتشرتم في الأرض، وسعيتم في الأسباب مع الدعاء لله سبحانه، والتوكُّل على الله جلَّ شأنه؛ فإنَّ الله بذلك يرزقكم الرزق الحلال الواسع.

التشغيل والتفعيل

- إضافةً إلى تقديم شؤون الحياة، والتجارة، والانفضاض عن الصلاة لذلك؛ فإنَّ مِن صور العصر الانفضاض إلى اللهو واللعب، ممارسةً أو مشاهدةً؛ وكذا الانفضاض إلى استقبال رئيس أو وزير أو مسؤول أوان الجمعة أو الصلاة المكتوبة؛ ممَّا أَلِف الناس في بلداننا أن يقدّموه على الصلاة، مفروضة كانت أو جمعة.

- مما يفيده قوله تعالى ﴿قَآئِمًا﴾ أنَّ الخطيب يكون على المنبر قائمًا لا قاعدًا؛ وأوَّل من قعد على المنبر معاوية بن أبي سفيان، كما ذكرت ذلك كتب التراجم والتاريخ.
- لا يقتصر الرزقُ على المال فقط؛ ولكنَّه يشمل جميع النعم من الله تعالى: من صحَّة، وعافية، وولد، ورأي، وعلم... فكلُّ أولئك من الله الكريم سبحانه، ولا رازق سواه: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.
- كيف نستفيد من سورة الجمعة في مجال «البرمجة الزمنية» للفرد والمجتمع؟ وكيف نؤصّل منها أيَّام الراحة الأسبوعية والعطل: بين الجمعة والسبت والأحد؟ وهل في السورة دليلٌ أنَّ العمل لا يتعطَّل يوم الجمعة لقوله تعالى ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾؟ وهل التنظيم العامُّ للعمل يتطرَّق لمصلحة المسلم في وقت الصلاة، ومردودية الإنتاج، وترتيب الأولويات في اختيار العمل؟ كلُّ هذه أسئلة تحتاج إلى اجتهاد علميٍّ جماعيٍّ؛ من مراكزَ للبحث من مختلف التخصُّصات؛ ليس منهجُها مجرَّد التنظير، ولكنَّ التنزيلَ إلى أرض الواقع هو المبتغى والأولوية في منهجها.

من الفكر إلى الفعل

- الحياة توازنٌ بين عبادة وعمارة، وذكر واتخاذ للأسباب؛ فلا تعارض بين دنيا وآخرة في منطق الإسلام.
- عن أمّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه ﷺ كان يقول إذا صلى الصبح حين يسلّم: «**اللهم إني أسألك علما نافعا، ورزقا طيبا، وعملا متقبلا**».
- وأثر عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «اللهم أسألك علما نافعا، ورزقا واسعا، وشفاء من كلّ داء».
- قال رسول الله ﷺ: «**نعمَ المال الصالح للمرء الصالح**».
- دعا الرسول ﷺ لأنس: «**اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه**».
- الأمر بالانتشار في الأرض بعد الصلاة نهي عن «الرهبانية» التي لم يكتبها الله تعالى على أمة محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- للقراءة: «**مجالس التذكير من كلام العليم الخبير**» عبد الحميد ابن باديس، و«**في رحاب القرآن**» إبراهيم بيوض.

تفسير

سُورَةِ المُنَافِقُونَ

ٱلْمُيسَّر

قال الله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1)

بذور المعنى

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: بسم الله الذي أرسل رسولَه بالهدى ودين الحقّ؛ وهو الذي كتبَ العزَّة لنفسه ولرسوله وللمؤمنين، ولكنَّ المنافقين لا يعلمون؛ وهو سبحانه الفاضحُ للمكذِّبين من المنافقين، والكاشفُ عمَّا تخفيه صدروهم؛ والله تعالى «باسمه» ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يدعوهم ليغفِر لهم، ويستحثهم ليستغفِر لهم رسول الله ﷺ، ولكنهم قوم مستكبرون؛ أمَّا المؤمنون فيستجيبون لربهم، ويقدِّمون الآجلة على العاجلةِ، يُنفقون أموالهم

رجاءَ أن يكونوا مِن الصالحين، وهم أبدا يذكُرون الموت والأجل، ويعملون لما بعده ﴿وَاللهُ خَبِيرُم بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

- ﴿إِذَا جَآءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾: المنافق هو مَن يُظهر خلافَ ما يُبطن؛ وهو في لغة القرآن الكريم من يُظهر الإيمان والصداقة ويخفي الكفر والعداوة، ويتربص بالمؤمنين، يُضمر لهم الشرَّ والهلاك، وهو معدودٌ في صفّهم، له ما لهم وعليه ما عليهم.

- والإشارة في الآية إلى رأسِ النفاق عبد الله بن أُبيّ بن سلول وأصحابِه، وهو الذي نزلت السورة تفضح أمره حين قال: ﴿لاَ تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ﴾، وقال لأصحابه: «إذا رجعتم إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل» فنزلت السورة: سورة المنافقون.

- وهؤلاء الذين نزلت الآيات تفضَحهم لنفاقهم، كانوا يأتون رسول الله ﷺ ويقولون: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾؛ والله تعالى أعلمُ بدواخلهم وبحقيقة أمرِهم، وهو أعلم أنهم إنما يُظهرون ذلك نفاقًا وكذبًا.

- ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾: فهو الذي أرسل محمدا ﷺ، وهو أعلم برسالته، ولا حاجة لله جَلَّجَلَالُهُ في أحد أن يؤمن أو يكفُر، أن يعلن الشهادة أو ينكرها، ﴿إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[العنكبوت:6].

- والمنافقون يخالفون بين ما يقولون وما يعتقدون، فهم

بذلك خانوا وظلموا وكذبوا. والله سبحانه صدَّقهم في قولهم عن الرسول ﷺ، وكذَّبهم في شهادتهم.

- ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾: هم لم يكذبوا في قولهم ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾ ولذا لم يكذبِّهم الله تعالى في قولهم؛ وإنما كذَبوا في اعتقادهم وفي قولهم بألسنتهم خلافَ ما أضمروا في عقولهم وقلوبهم؛ والله تعالى يشهد إنَّهم كاذبون في شهادتهم، وهو سبحانه يشهد أنَّ كلامهم مخالف لمعتقدهم.

التشغيل والتفعيل

- قد يكون قول المنافقين: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾ محكيًّا بالمعنى لا باللفظ؛ لأنهم يستعملون عبارات كثيرة، ويتصرَّفون تصرُّفات عديدةً، لا تُقال ولا تأتي إلاَّ ممن يشهد بأنَّ محمدا رسول الله، ومن ذلك نطقُهم بكلمة الشهادة.
- كان النبيء ﷺ يقرأ في صلاة الجمعة في الركعة الأولى بسورة الجمعة، فيحرِّض بها المؤمنين على العبادة، وفي الركعة الثانية بـ«سورة المنافقون»، فيقرِّع بها المنافقين [رواه الطبراني في الأوسط].
- «الكذب مخالفةٌ بين الوجود اللفظيّ والوجود الذهنيّ، والجهلُ مخالفة بين الوجود الذهنيّ والوجود الخارجيّ».

- في فواتح سورة الصف قال تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾؛ ولقد اختار بعض المفسِّرين أنَّ الخطاب للمنافقين؛ وبذلك يكون بين «سورة المنافقون» و«سورة الصف» وجه تناسبٍ ومناسبةٍ.
- ختام سورة الجمعة ﴿وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فيها جوابٌ لما جاء في «سورة المنافقون» في قولهم: ﴿لاَ تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ﴾، وفيها تعليلٌ لأمر الله تعالى: ﴿لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾، وكذا لقوله سبحانه: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾.

من الفكر إلى الفعل

- اليقين بأنَّ الله تعالى يعلم السرَّ والعلن، ما يَظهر وما يخفى، يقي المسلمَ من مهالك النفاق: ﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾.
- الكيد الذي يتحرك تحت عنوان الإسلام أشدُّ بلاء من الكيد الذي يتحرك باسم الكفر؛ ولذا كان النفاق أخزى من الكفر، والمقرر في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾.
- ما تعاني منه الأمة الإسلامية اليوم هو نفاقٌ داخليٌّ؛ وهو أكثر خطرا من عدوها الخارجيّ؛ ولقد حلَّل ابن نبي حقيقة هذه الفئة تحت مسمَّى: القابلية للاستعمار.
- للقراءة: «**النفاق والمنافقون في عهد رسول الله ﷺ**» إبراهيم علي سالم. مالك بن نبي: «**الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة**».

قال الله تعالى:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا
كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣﴾

بذور المعنى

- ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾: جعل هؤلاء المنافقون من حِلفهم وقَسمهم الكاذب، ومن ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ المغلَّظة، سترًا وحجابًا، يحتمون به كلَّما فُضح أمرهم، وكلَّما حامت حولهم الشُّبهات؛ فيحلفون كذبا أنهم لم يقولوا وقد قالوا، وأنهم لم يفعلوا وقد فعلوا.
- ومادة «جنن» تفيد الستر، والجَنن الساترُ؛ والجُنَّة كلُّ ما وقى وستر من سلاحٍ وغيره؛ والمنافق يستتر ويحتمي بأيمانه الكاذبة، ولقد اتخذها جُنَّةً وحصنًا؛ ذلك أنَّ رسول الله ﷺ يستمع للمؤمنين: ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ

لِلْمُومِنِينَ﴾[التوبة:61]، ولا يخوِّن أحدًا إلاَّ من فضَح نفسَه، حتى وإن كان يعلم أنه مِن زمرة المنافقين؛ وبذلك استعملوا الأيمان للتخفِّي: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾[النساء:108].

- ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ﴾: هم صدُّوا عن سبيل الله ثم صَدُّوا عنه غيرَهم، بنفاقهم وأيمانهم، وبخداعهم وتخطيطهم الخفيّ الماكر، للكيدِ من الإسلام والمسلمين؛ ومن اتبع المنافقين ضلَّ عن سبيل الله وصدَّ عنه، والتحق بسبيل الشيطان ودعا إليه.

- ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: قُبِّحَ وخالف الحسنَ عملُ هؤلاء المنافقين، فهم يسعون في محاربة الحقِّ، ونُصرة الباطل، وتخريب بيت المسلمين، وصدِّ الناس عن الصراط المستقيم؛ وهم بذلك نقطة ضعفٍ في صفِّ المسلمين؛ لأنهم يُحسَبون معهم، ويُعدُّون منهم، والحقُّ أنهم خلاف ذلك.

- ولقد أتى المنافقون وبالا عظيما، وظلما كبيرا، في مسيرة المسلمين؛ وأضرُّوا بهم أيَّما ضررٍ، ولا يزالون إلى يوم الدين.

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: هم

دوما مذبذَبون، ولقد أظهروا شيئا من الإيمان، وأعلنوا بألسنتهم أنهم مؤمنون، وأكَّدوا ذلك بالحلف وشهادة الزور؛ ثم بفعلهم هذا كفَروا، وخرجوا من صفِّ المسلمين، وصاروا وبالاً عليهم؛ وبسبب فعلهم هذا ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وأبصارهم؛ فتحوَّل النفاق إلى حالة تطبع عقيدتهم وتختم على قلوبهم؛ وخرج الإيمان من ثنايا أفئدتهم وضمائرهم.

- ولا يبعد أن يكون منهم من آمن حقيقةً في البداية ثم نافق بعد ذلك. نسأل الله أن يعصمنا من النفاق، فإنه لا عاصم من أمر الله إلاَّ الله سبحانه.

- ﴿فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾: هؤلاء المنافقون لا يدركون خطورة ما يأتون، ولا يعرفون سوءَ مصيرهم، ولا يستوعبون معنى الشهادة التي أعلنوها؛ والمنافقُ قد لا يخونُه العلم والحفظ، ولكنَّه يفتقد إلى التمثُّل والعمل بما يعلم؛ وهم بهذا يأتون مقتا كبيرا: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[الصف:2-3].

التشغيل والتفعيل

- نظير هذه الآية في سورة المجادلة، قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[الآية

16]، والفرق بين الآيتين المتشابهتين لفظا في الفاصلة: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

- وصفَ الله تعالى المنافقين في سورة الحجرات بقوله: ﴿قَالَتِ الاَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُومِنُوا وَلَـكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الايمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِّنَ اَعْمَالِكُمْ شَيْئًا اِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الآية 41]، وفي الآية فسحةٌ ورحمةٌ لمن أراد أن يهتدي، ولمن تاب مِن نفاقه، فهي من أرجى الآيات.
- «المنافقون لا يفقدون قابلية المعرفة، بل يفقدون إرادتها التي هي سرُّ حركتها في العقل والشعور»[تفسير فضل الله].
- الذي طبع الله على قلبه، وختم عليه، لا يقبل الحقَّ، ولا يتَّبعه، وهو يتَّبع الهوى: ﴿طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَآءَهُمْ﴾[محمد:16]، فهو لا يفقه الحقَّ، ولا يسمع إلى الحقّ، ولا يعلم حقيقة العلم؛ كما في فاصلة آيات الطبع على القلب.
- طبعُ الله تعالى على قلوب المنافقين ليس على سبيل الابتداء، وإنما على سبيل المُجازاة، نظير ما أتوا من قبيح المعتقد، والقول، والفعل.

من الفكر إلى الفعل

- صحّ عن رسول الله ﷺ أنه يدعو الله تعالى بقوله: «**اللهم إني أعوذ بك من الفقر، والكفر، والفسوق، والشقاق، والنفاق، والسمعة، والرياء**».
- المؤمن لا يأمن من نفسه أن يزيغ، أو يظلم، أو ينافق، أو يكفر؛ فهو دائم الحيطة، والدعاء لله الجليل أن يعصمه.
- وجب على المسلمين التفطُّن إلى حقيقة المنافقين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا؛ فما خفي بعد ذلك فأمره إلى الله.
- البحوث والدراسات حول ظاهرة النفاق في كل عصر، تلوناتها وتمثلاتها، وكيفية مواجهتها؛ ممَّا وجب أن يكون مقرَّرا علميا وبحثيا؛ في جميع المستويات والتخصصات.
- للقراءة: «**ظاهرة النفاق في إطار الموازين الإسلامية**» عمرو خليفة النامي، و«**آيات متشابهات الألفاظ في القرآن الكريم وكيف التمييز بينها**» عبد المحسن البدر.

قال الله تعالى:

وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ
كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ
فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

بذور المعنى

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾: المنافقون يتحرَّكون بأجسام منتفخةٍ ممتلئةٍ، موشَّحة بالمُسوح، تُوحي لمن يراهم بالجمال والتناسق والعظمة، وفي هيئتهم يَبدو أنهم من عِلية القوم، ومن المترفين المترفهين؛ وتكون أجسامهم كذلك لأنهم يعتنون بها أشدَّ الاعتناء بالتنعُّم، والأكل والشرب، والملذات، والراحة والجاه؛ بينما المسلمون في عهد النبيء ﷺ كانوا منشغلين بأمر الدعوة، يؤثرون على أنفسهم، ويعتنون بتزكية أرواحهم، فضعُفت بذلك أجسامهم؛ وشتان بين الفريقين.

- والخطاب في الآية لرسول الله ﷺ، أو هو لغير معيَّنٍ، يشمُل كلَّ من يراهم ممن قد تغرُّه صورُهم. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ قيل المعنيُّ بها عبد الله بن أبي، ومغيث بن قيس، والجدّ بن قيس؛ كانت لهم أجسام ومنظر خادعٌ؛ ولكنها عامَّة في المنافقين على الغَلبة.

- ﴿وَإِنْ يَّقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾: حين يتحدثون إليك يا رسول الله يتنمَّقون في كلامهم، ويتصنَّعون فيه، فيعتنون به كما يعتنون بأجسامهم؛ وبذلك يُغرون السامع ويبعثونه على الإعجاب، فيميل إلى الإصغاء إليهم «فإنَّ الاستماع مترتّب عن الحُسن».

- ويحتمل المعنى كذلك أنهم يتكلمون في مواضيع محبَّبة إلى نفس السامع، فيقبلها ويطلب المزيد منها.

- ومن المعاني أنهم يقولون ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾ فتسمع لقولهم، وقد جاءت السورة لفضح هذا الكذب، وكشف هذا الخداع.

- ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾: ذاكَ الذي ذكِر هو ظاهرُهم، أمَّا حقيقة أمرِهم فإنهم كالخشب الخاوية الفارغة، المسنَّدة إلى حائطٍ: المتَّكئة إليه، كنايةً عن الجثة غير النافعة؛ فهم أشباحٌ بلا أرواح، وأجسام بلا قلوبٍ ولا عقولٍ، وقشور بلا ألبابٍ.

- ووصف الخشب بـ«المسنَّدة» لأنَّ وظيفة الخشبة أن تكون

نافعة في إسنادِ سقفٍ، أو كونها ساريةً، أو معلاقًا، أو آلةً لعمل، أو أنها شجرة مثمرة قبل ذلك، فهي ذات فائدةٍ ونفع؛ غير أنها تتحول إلى خشبة مُرماة لا نفع فيها؛ هذه حال المنافقين في كلِّ زمان ومكان ومجتمعٍ. والصورة البلاغية بديعة جدا.

- ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾: لكونهم جُبناء لا نفع يرجى منهم، ولأنهم يخفون ما لا يُظهرون؛ فإنهم يعيشون متوجّسين أن يُكشف أمرُهم، فيَحيون الهواجس والوساوس، ويظنُّون كل صيحة، حتى ولو لم ترقَ إلى كلامٍ، أنها تَعنيهم، وأنهم هم المقصودون بها؛ فهم إذا سمعوا صوتَ المتقاتلين مثلا، أو صوتَ من يستغيث، ظنوا أنَّ الناس يستنفر بعضهم بعضا ليقاتلوهم.

- أو إذا رأوا اثنين من المؤمنين يتحدثان فيما بينهما، ظنوا أنهما إنما يتحدثان عنهم؛ فهم في وسوسة وشكٍّ دائمين، سببه أنهم يجدونَ ما يختلج في قلوبهم من نفاقٍ ودغلٍ، ويخافون أن يُفضح أمرهُم، ويُكشف سرُّهم.

- ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾: أي كأنهم ﴿هُمُ﴾ فقط الأعداء كاملو العداوة، بلغوا في العداوة الحدَّ الأقصى؛ ذلك أنَّ أشدَّ الناس عداوة لك، مَن يكون معك ظاهرا وهو يكيد لك باطنا. والأمر للرسول ﷺ أن يأخذ حذره منهم؛ وهو أمر للناس جميعا أن يجعلوا بينهم وبين المنافقين وقايةً، وأن

يكونوا يقظين حذرين؛ «وإنما تؤتى المشاريع والمؤسَّسات من جهة منافقيها»، وتلك سنة الله تعالى إلى يوم الدين.

- ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤفَكُونَ﴾: لعنهم الله سبحانه، وطردهم من رحمته، وهزمهم في كلِّ مسلكٍ وسبيل؛ وهو تطمينٌ للمؤمنين أنَّ الله تعالى معهم وينصرهم عليهم، وهو تعليمٌ للمؤمنين أن يدعُوا الله تعالى بذلك، ويلعنوهم بقولهم: «قاتل الله المنافقين ولعنهم».
- ﴿أَنَّىٰ يُؤفَكُونَ﴾ أي عجبًا لهؤلاء المنافقين كيف يُصرَفون عن الإيمان مع ظهوره لهم أنَّه الحقُّ؟ وكيف يصرفون عن النظر في الأدلَّة الواضحة، وعن قبول الحقّ وهو ساطع؟ وفي آية الذاريات: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (8) يُؤفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾[الآية 10].

التشغيل والتفعيل

- من صور تشبيه المنافقين بالخشب المسنَّدة أنهم مثل «الأصنام المنحوتة من الخشب، لها أعين لا تُبصر بها، وآذان لا تسمع بها»[اطفيش]، «والخُشب لا تعقل ولا تفهم؛ فكذلك أهل النفاق كأنهم في ترك التفهم والاستبصار بمنزلة الخشب»، «الخُشب المسندة إلى الحائط أحدُ طرفيها إلى جهة، والآخر إلى جهةٍ أخرى، والمنافقون كذلك؛ لأنَّ

المنافق أحدُ طرفيه وهو الباطن إلى جهة أهل الكفرِ، والطرف الآخرُ وهو الظاهر إلى جهة أهل الإسلام»[الرازي].

- هم في الدنيا خُشب مسنَّدة، ويوم القيامة يكونون ﴿لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، ويكونون كذلك ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي حطبها أو حجارتها، أي وقودها.

من الفكر إلى الفعل

- المؤمنون العصاة يستغفر لهم؛ لأنهم لم ينزعوا عنهم ثوب الإيمان، ولم يطبع الله على قلوبهم بالنفاق والكفر.
- المؤمن يجتهد في التفريق بين من يصدق ومن ينافق؛ وقد يخدعه المنظر، ولكن لا ينخدع له دائما.
- لنا في رسول الله أسوة حسنة، حين اتخذ مواقف صارمة من بعض المنافقين، فمنع المسلمين من شرّهم المستطير.
- «المنافقون كالخُشب المسنَّدة بالنسبة إلى الانتفاع وعدم الانتفاع، وليسوا كالخشب المسنَّدة بالنسبة إلى الاستماع وعدم الاستماع». من هذه الصورة الإدراكية نؤسّس لفهم عميق عن حقيقة النفاق والمنافقين.

قال الله تعالى:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ
وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿5﴾

بذور المعنى

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾: ورد في سبب نزول الآية أنَّ رسول الله ﷺ قال لرأس النفاق عبد الله بن أُبي: «تُب»، فجعل يلوي رأسه، فنزلت الآية.
- ولَيُّ الرأسِ تحريكها تعبيرًا عن الإنكار والإعراض، وهو من فعل المتكبرين، وسواءً في ذلك حرَّكها حقيقةً أم أنَّه لم يحرّكها وإنما ذلك كنايةً عن الرفض.

في رواية ورش عن نافع ﴿لَوَوْاْ﴾ بالتخفيف من لوى يلوي أي مال عن الحقِّ، وشدَّد الباقون ﴿لَوَّوْاْ﴾ من لوَّى يلوِّي رأسه أي حرَّكه وأماله استهزاءً.

- ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾: حين يلوُون رؤوسهم يراهم الرسول ﷺ إمَّا رؤية بصرية أو أنه يعلم أنهم يُعرضون ويصدُّون عن الحقّ بفعلهم هذا، ويصدُّون عن الاستغفار، وقد دعاهم رسول الله ﷺ إليه. ولقد فضح اللهُ تعالى صدَّ المنافقين في مطلع السورة: ﴿اتَّخَذُوٓا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[الآية 2].
- ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾: هم في وهمهم يعيشون بروح الكبرياء عن الخلقِ، والنفورِ من الحقِّ، والصدِّ عن التوبةِ؛ ولقد غرَّهم ما هم فيه من نعيم، وكون أجسادهم تُعجِب الرائي، وقولهم مسموع لدى المستمع؛ كلُّ ذلك يوحي بكونهم من طبقة راقيةٍ ثرية، ومن عِلية القوم، ومن المترفين؛ وهو الداعي والدافع لهم بالتزام الكبرياء منهجَ حياةٍ؛ ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[النحل:25].

التشغيل والتفعيل

- رغم أنَّ المنافقين معلومون لدى رسول الله ﷺ إلاَّ أنَّه لم يفضحهم أمام الناس، ما داموا لم يجاهروا بنفاقهم؛ وكان يدعوهم إلى أن يستغفرَ لهم، ولا يملُّ في طلب هدايتهم، وقد صلَّى على كبيرهم، حتى نهي عن الصلاة عليهم.
- ما بال من لا يقدر على معرفة المنافقين، وإنما قد تبدو له تصرُّفات وأقوال من أحد من الناس، وقد تكون نفاقًا أو أنها

أخطاءٌ ارتكبها وقلبُه ليس على النفاق؛ ومن يدرينا؟ من ثم وجبت الرحمة، ووجب العفو، ووجب الاستغفار وكسبُ القلوب لتعزيز صفّ الإيمان والإسلام؛ ووجبت مع ذلك اليقظةُ والحذر، واتخاذ الحيطة والوقاية من خداعهم ومكرهم.

- يقول مالك بن نبي: «الجهل في حقيقته وثنيةٌ؛ لأنَّه لا يغرس أفكارا، بل ينصِّب أصناما» هذه قاعدة كلية في اكتشاف الزيف في الناس، وتمييزه عن الحقِّ في عالم الأفكار والأشخاص.

من الفكر إلى الفعل

- الاستغفار للمؤمنين، ودعوة المنافقين ليغفر الله لهم، فيتوبوا مما هم فيه من سخط الله؛ كل ذلك من سمات رسول الله ﷺ، وجب على المسلم التأسي بها.
- رغم أنَّ الله تعالى قال لرسوله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَّغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ إلاَّ أنَّ الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**لأزيدنّ على السبعين**».
- من أشدّ صور النفاق اليومَ ليُّ أعناق الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، لتُوافق أهواء قوم قد ضلُّوا وأضلُّوا؛ من مثل القراءات الحداثية، وما بعد الحداثية؛ والمطلوب دراستها بعمق، ومواجهتها بروية وعلم.
- للقراءة: «**ميلاد مجتمع**» مالك بن نبي؛ و«**المتساقطون على طريق الدعوة**» فتحي يكن. النامي.

قال الله تعالى:

سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿6﴾

بذور المعنى

- ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾: يتساوى استغفارُك يا محمد لهم وعدمُ استغفارك؛ وتساوي الأمرين عند الله معناه أنَّه لا يُفيدهم ولا ينفعُهم، ولا يقدِّم في حقّهم شيئا ولا يؤخِّر؛ ذلك أنَّ الله تعالى قضَى في حكمه أن لا يغفِر لهم، وقد بدا لهم من النفاق ما استحقُّوا به الشَّقاء، ومن ذلك أنهم هم مَن أعرض عن الاستغفار، وهم مَن استكبر عنك وتنكَّف يوم دعوته لتستغفر له.
- ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾: هؤلاء المنافقون فسقوا عن أمر الله، وتمرَّدوا عن حُكمه؛ ولم يرتضوا الهداية

سبيلاً؛ والاستغفارُ والهدايةُ إنما يكونان لمن رضي حكمَ الله، وابتغى رضوانه، وسأل مغفرته؛ ولذلك لا يغفر الله لهم ولا يَهديهم سبيلاً.

- ولقد أعلمنا الله تعالى في كتابه الحكيم أنه: ﴿لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، ﴿لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، ﴿لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، ﴿لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾. وفحوى هذه الآيات أنَّ الله تعالى يهدي القوم المؤمنين، العادلين، الطائعين، ويهدي الصادقين، المخبتين، المستغفرين، التائبين...

- هؤلاء المنافقون استوجبوا السخط من عدَّة أوجه: الكذب، والخيانة، والأيمان الكاذبة، والصدّ عن سبيل الله، والانتقال من الإيمان إلى الكفر، والإعراض عن استغفار رسول الله لهم، والفسق... وغيرها من الصفات الرذيلة التي أغلقوا بها باب الهداية والرحمة على أنفُسهم، ورفضوا كلَّ دعوة تدعوهم إلى النجاة يوم القيامة، فكانوا إخوانا للشياطين، بل شياطين مردةً.

التشغيل والتفعيل

- ذكرت مصادر الحديث أنه لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلّي عليه، فقام

رسول الله ﷺ ليصلّي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، تصلّي عليه وقد نهاك ربُّك أن تصلّي عليه» فقال رسول الله ﷺ: «**إنما خيَّرني الله، فقال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرَّة، وسأزيده على السبعين**»، قال: «إنه منافق» قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله: «**ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره**»[رواه البخاري].

- قال سعيد بن جبير: «استغفار رسول الله ﷺ للمنافقين على تقدير التوبة، وعدم الاستغفار على تقدير الإصرار»؛ وفي كلا الحالين بدت شخصية الرسول الرحيم الحليم، المخبت لربِّه الصادق في دعوته.

- في حيثيات الاستغفار ثمة دعوةٌ من الرسول ﷺ لعبد الله بن أبي سلول المنافق لأن يستغفر له، وذلك مجاملة وتطييب لخاطر ابنه المؤمن عبد الله بن عبد الله بن أبيّ بن سلول؛ مع كون النهي عن الاستغفار لهم لمَّا يقرَّر بعدُ، وإنما كان الحكمُ هو التسوية بين الاستغفار وغيره؛ فلمَّا نزل تحريم الاستغفار فلا مجاملة ولا مداراة؛ وكذا كان الحال في حقِّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أبيه الكافر: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة:114].

من الفكر إلى الفعل

- لا يجوز الاستغفارُ للكفَّار والمشركين والمنافقين الفاسقين معلومي النفاق، ويجوز الاستغفار لمن لم يُتحقَّق من نفاقه.
- الآية دليلٌ أن لا أحد يُغني عن أحد، فإذا كان الفاسق لا يحبُّ أن يَغفر الله له، فلا ينفعه استغفار رسول الله ﷺ له، ومن باب أولى لا ينفع استغفار أحد لأحد إلاَّ أن يكون المستغفَر له مقبلا على التوبة لا مدبرا؛ ولعلَّ هذا المعنى هو من مقاصد نزول الآية.
- المسلم رحيمٌ بالعباد، محبٌّ الخير للناس جميعا؛ إلاَّ من أبى وتكبَّر واستكبر، فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه.
- لا يعلم أحد الغيب، ولا ما في قلوب الناس، حتى النبيء ﷺ، إلاَّ ما أطلعه الله عليه من دواخل المنافقين ودواغلهم.
- للقراءة: «**الرحيق المختوم**» للعالم الهندي صفي الرحمن المباركفوري.

قال الله تعالى:

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلهِ خَزَآئِنُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَلَـكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ ۝٧﴾

بذور المعنى

- ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلهِ خَزَآئِنُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَلَـكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ﴾: نزلت الآية في عبد بن أبيّ بن سلول حين قال والناس في غزاةٍ: ﴿لاَ تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾، وقال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الاَعَزُّ مِنْهَا الاَذَلَّ﴾ ويقصد بالأعزِّ قومَه، وبالأذلّ المهاجرين من المسلمين.
- أسند الله تعالى القول للمنافقين مع أنَّ القائل واحدٌ، ذلك أنهم رضوا به، واجتمع أمرهم عليه؛ فكأنهم بذلك قالوه؛

أو أنَّ البعض منهم قاله كذلك، فاشتركوا في الإثم وتمالؤوا عليه.

- يقول المترفون من المنافقين بعضُهم لبعضٍ: لا تنفقوا على فقراء المهاجرين حتى ينفضُّوا عن رسول الله، أي يتفرَّقوا عنه ويبتعدوا، وحتى يرتدُّوا عن دينهم؛ وهؤلاء الفقراء هم الذين ينصرونه وينفِذون أمره؛ ونحن الذين ننفق عليهم من حرِّ مالنا؛ ونعيلهم ونرفع عنهم المسغبَة.

- ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: هو جوابٌ مفحِمٌ لمن يقول: لا تُنفقوا على الفقراء من أصحاب رسول الله؛ وهو جوابٌ لكلِّ من يعتقد أنه هو الذي يرزق العبادَ؛ وذلك أنَّ الدينَ لله، والرزقَ لله، والعبادَ عيال الله، وإن كان من رزقٍ فمن الله، فهو الذي يبتلي بعض عباده بالفقر، ويبتلي آخرين بالغنى؛ وهو الذي يميل المالَ من جهة إلى أخرى في رمشة عينٍ.

- والآية فيها تربية للمسلمين أن لا يعتقدوا الرزق في غير الله جَلَّجَلَالُهُ، وأن لا يضعُفوا حيال امتحانات المال والسُّلطة والغلبة؛ فالتوحيد الحقُّ كفيلٌ برفعهم أعلى الرتب وأسمى المقامات.

- ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ﴾: لا يفقهون وجهَ الحكمة في توزيع المال، وهم لا يفقهون أنَّ المُلك بيد الله وحده، وأنَّ خزائن السماوات والارض له لا لغيره سبحانه؛ وتجدهم

يظنُّون الغنى والفقر نتيجةً لأسباب مباشرةٍ، يملكون هُم زِمامَها؛ ويعتقدون أنهم إذا رفعوا نفقتهم عن المؤمنين الفقراء المهاجرين فإنهم سيجوعون ويسغُبون؛ وهم حتى لو علموا هذه المعاني الإيمانية ظاهرا، وحتى لو ردَّدوها بألسنتهم، إلاَّ أنهم لا يفقهونها بحقٍّ، فهم الذين ﴿طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[التوبة:93].

التشغيل والتفعيل

- في ثنايا السورة تكرَّر التعليل بـ﴿لاَ يَفْقَهُونَ﴾ في حقِّ المنافقين مرتين، وبـ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ مرَّة، وبـ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مرَّة؛ ومشكلة المنافقين متأرجحة بين جهلٍ وجهالةٍ وإساءةٍ للعمل، بين ضلالةٍ هم الذين اختاروها، وضلالةٍ من الله تعالى جزاءً لهم لما يعتقدون، ولما يقولون، ولما يفعلون.
- ورد في مصادر أسباب النزول أنَّه حين خاض مسطح بن أثاثة في عِرض أمِّنا عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وكان سيّدنا أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يعيله وهو ابن خالتِه؛ قرَّر أبو بكر أن يمنع عنه الصدقة والمعونَة؛ فنهاه الله تعالى، وذكَّره أنَّ الله تعالى هو الذي يمتنُّ عليه أن رَزقه، فليكن في خُلقه متخلّقا بأخلاق الله جلَّ في علاه؛ واستجاب أبو بكر، فعاد إلى ما كان عليه

من فضلٍ؛ ونزلت: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾[النور:22]، شتان بين الموقفين: موقف أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأس الإيمان، وموقف ابن سلول رأس النفاق.

- الآيات تعالج حربًا اقتصادية بين المتحكِّمين والمتحكَّم فيهم، بين أرباب المال والسلطة والمحتاجين إلى أدنى ضرورات الحياة؛ وهي حربٌ تتكرَّر دوما إلى يوم الدين؛ ولقد ينهزم أهلُ الحق أمام أهل الباطل بسببها أحيانًا، إذا لم يستنيروا من مشكاة رسول الله ﷺ، وإذا لم يرتبطوا بالله وحده.
- يرى العالم الاقتصادي الفرنسي جاك أستروي أنَّ «في الإسلام نظامًا للحياة التطبيقية والأخلاق المثالية الرفيعة معًا، وأنَّ هاتين الوجهتين مترابطتان لا تنفصلان أبدًا» من خلال هذه العبارة يمكن تحليل العلاقة بين النفاق والمال، وبين الإيمان والمال.

من الفكر إلى الفعل

- ﴿لِلَّهِ خَزَآئِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فمن كان سائلا فليسأل الله، ومن كان مسترزقا فليدع مالك الملك لا غيره.
- الحرب بين أهل الحقّ وأهل الباطل، قد تأخذ شكلا ماديًّا؛ وهي ليست حربا هيّنة، ولكَم سقط فيها من أحد، ولكم ابتلي فيها من مسلم.
- العفو والصفح من شيم المسلم، والغفلة والتبعية ليستا من شيم المؤمن.
- لا يلتقي النفاق مع روح الإسلام، ولا الإيمان مع اقتصاد مهلهل ضعيف، عالةٍ على الآخرين.
- للقراءة: «**المسلم في عالم الاقتصاد**» مالك بن نبي. «**الإسلام والتنمية الاقتصادية**» جاك أوستروي.

قال الله تعالى:

يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الاَعَزُّ مِنْهَا الاَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ وَلَـكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿8﴾

بذور المعنى

- ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الاَعَزُّ مِنْهَا الاَذَلَّ﴾: هو نفس القائل في الآية السابقة، وهو نفسُ الغرور والوقاحة؛ إذ جعل نفسَه ومن معه هم الأعزاء، وجعل رسولَ الله ﷺ ومَن عنده هم الأذلاَّء؛ وهذا «إعلانُ حربٍ» وتوعُّد به؛ وبأنهم بمجرَّد أن يصِلوا المدينة، عند انتهاء غزوة «بني المصطلق»، سيُشعلونها فتنةً، وسيُخرجون المؤمنين منها.
- ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ﴾: مطلقُ العزَّة، وجميعُ العزَّة، ومصدرُ العزَّة هو الله تعالى العزيز القادر: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[فاطر:10]، وهو سبحانه «ربُّ العزَّة»؛

ومن ثم فإنه يمنح العزَّة لمن يشاءُ من عباده، ويسلبها ممن يشاء؛ وليس أحبَّ إليه من رسوله الكريم محمد ﷺ، وليس أكرم عنده من عباده المؤمنين به وبرسوله، من الصحابة المهاجرين والأنصار، والذين جاؤوا من بعدهم إلى يوم الدين.

- ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾: نفى الله تعالى عن المنافقين الكرامةَ ونسب إليهم الذلَّة، ونفى عنهم العلم فنسب إليهم الجهالةَ، ونفى عنهم الشجاعة فنسبهم إلى الجبن، ونفى عنهم الصدق فنسبهم إلى الكذب؛ وبالجملة نفى عنهم كلَّ الخصال الحميدةِ، ونسب إليهم جميعَ الخصالِ الذميمة؛ فهم أرذلُ الناس، وهم دون الكفَّار مرتبةً، كما في سورة النساء: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[الآية 145].
- ومِن معاني الآية أنَّ المنافقين لا يعلمون أنَّ الله تعالى أخبرَ رسوله بمقولتهم تلك، ولو علموا ما قالوا مقولتهم الشنيعة التي بسببها أودت بهم المهالكُ، وأردتهم المهاويُ.

التشغيل والتفعيل

- هي قاعدة كلية صادقة إلى يوم الدين: ﴿لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ﴾، ولكن يبقى السؤال المحير، والفتنة الكبرى التي نُفتن بها اليوم، وهي: حين يتغلَّب الكافرون على

المؤمنين (أو المنسوبين إلى الإيمان) وحين يذلُّونهم؛ لا ريب أنَّ الله تعالى صادقٌ، وأنَّ العزَّة هي للمؤمنين؛ ولكن أين الخلل الذي في المؤمنين؟ هل تنتفي عنهم صفة الإيمان حينئذٍ؟ وما هو الحدُّ الفاصل بين التخلُّف والذلَّة، وبين الحضارة والعزَّة؟

- لا يكفي أن نعلِّل عزَّة المؤمنين فيما يكون في قلوبهم من طمأنينة وعزيمة وإحساسٍ بالكرامة، إذا كانوا من الناحية المادية مغلوبين مقهورين مفتونين؛ فليكن بحثنا أعمقَ، وتعليلنا أوثق، وعملُنا أصدق.
- قال الإمام جعفر الصادق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ الله فوَّض إلى المؤمن أموره كلَّها، ولم يفوِّض إليه أن يكون ذليلاً؛ ألم ترَ إلى قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ههنا: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ والمؤمن ينبغي أن يكون عزيزا ولا يكون ذليلا».
- الإيمان لا يجتمع مع الذلِّ، وفي حديث سئل النبي ﷺ: «أيكون المؤمنُ جباناً؟ قال: **نعم**. ثم سُئل: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: **نعم**. ثم سُئل: أيكون المؤمن كذَّاباً؟ قال: **لا**»[رواه مالك في الموطأ]. ونحسب أنَّه لو سئل: أيكون المؤمن ذليلا؟ فإنه سيجيب بقوله: لا.

من الفكر إلى الفعل

- سؤالنا لله تعالى بإلحاح شديد، ودعاؤنا بخشوع حديد: ﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ذلك أنَّ من الفتنة أن يكون الكافرُ متمكِّنا متحكِّما، والمؤمن تابعا متحكَّما فيه.
- «إنَّ الله فوَّض إلى المؤمن أموره كلها، ولم يفوض إليه أن يكون ذليلا» قاعدة كلية في فقه الحضارة، هي مفتاح لمغاليق في الفكر والفعل.
- العزَّة غير الكبر، فالعزَّة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه وإكرامها عن أن يضعها لُقمة بيد أغراض دنيوية حقيرة؛ أمَّا الكبر فجهل بحقيقة النفس، وإنزالها فوق منزلتها.
- للقراءة: «**لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟**» لأمير البيان شكيب أرسلان. و«**ماذا خسر العالم بانحِطاط المسلمين؟**» لأبي الحسن الندوي.

قال الله تعالى:

يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلاَدُكُمْ
عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿9﴾

بذور المعنى

- ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾: بعد أن أثبت الله سبحانه العزَّة للمؤمنين، وبيَّن أنه جَلَّجَلَالُهُ هو الذي يرزقُهم؛ كأنَّ السؤال يأتي: وكيف يجب أن يكون تصرُّف المؤمن في المال، حين يرزق من الله تعالى؟
- ويكون الجواب واضحًا: ليس المنهيُّ عنه كسبُ المال، ولا الغنَى مهما بلغ حدُّه؛ ولكن حذار أن يكون المال والولد مَلهاةً لكم عن ذكر الله تعالى.
- ثم إنَّ تكرار «اللام» في ﴿وَلَآ أَوْلاَدُكُمْ﴾ للفصل؛ فقد يكون

المال هو الملهِي، وقد يكون الولد، وقد يكونان معاً.

- والمناسبة عجيبة بين المال والولد وبين الرزق والعزَّة؛ فكأنَّ غالب العزَّة تأتي من الولد، وغالب الرزق يأتي من المال.

- وذكر الله يكون بمعنييه الحقيقيّ والمجازيّ؛ ومنه الذكرُ باللسان مثل الصلاة وتلاوة القرآن؛ وذكرٌ بالعقل والقلب كالتفكُّر في عظمة الله تعالى وأوامره ونواهيه؛ قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أفضل مِن ذكر الله باللسان ذكرُ الله عندَ أمره ونهيه».

- ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: رغم أنهم خُوطبوا بصفة الإيمان، إلاَّ أنَّ الواحد منهم إذا ألهاه مالُه وولَده عن ذكر الله تعالى، فإنَّه سينكُص على عقبيه، وسيكون معدودا ضمن الخاسرين.

- والخاسر في تجارته من باع الشريف الباقي بالخسيس الفاني؛ وهم خاسرون دنيًا بأن ينتفي عنهم الإيمان، ويلتصق بهم النفاق؛ وخاسرون آخرة، بأن يلحقهم غضب الله ومقته، وينالهم عذابه خالدين فيه أبدا.

- نهيُ الله تعالى المؤمنين أن يلتهوا بالمال والولد عن ذكر الله لم يرد بصيغة النهي الصريحة، وإنما هو نهي بالكِناية، وهو آكد من التصريح أحيانًا.

التشغيل والتفعيل

- كأنَّ أواخر «سورة المنافقون» تفسير، أو هي مزيد بيانٍ، لما جاء في أواخر «سورة الجمعة»؛ والخطابُ في الخاتمتين موجَّه إلى ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ إذ المحور الأساس هو العلاقة بين ذِكر الله تعالى والتجارة والأموال والأولاد في السياقين؛ واليقين هو نسبة الرزق إلى الله تعالى ﴿وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، ﴿وَلِلهِ خَزَآئِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛ ثم إنَّ تحذير الله تعالى الشديد موجَّه للمؤمنين أن لا يكونوا في صفِّ المنافقين، وأن لا يتَّصفوا بصفاتهم؛ فعليهم أن يكونوا مؤمنين، ويكونوا مع المؤمنين: ﴿وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، ﴿وَاللهُ خَبِيرُم بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.
- تسبيق الأموال على الأولاد في النهي عن أن تشغُل عن ذكر الله، ذلك أنَّ الأموال من شأنها أن تلتهم من وقت الناس أكثر مما يلتهم الأولاد؛ رغم أنَّ الحبَّ منصرف إلى الأولاد قبل الأموال، فلقد يُفدى المال بالولد، ولا يُفدى الولد بالمال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾[آل عمران:14]. وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الولد مَبخلة مجبنة**»[رواه أحمد وغيره].

من الفكر إلى الفعل

- كان رسول الله ﷺ يدعو ربَّه الغنى وأسبابه، ويسأله العزة وأسبابهما، ويعوذ بالله من الفقر والذلة وأسبابهما، من ذلك قوله: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم والقسوة، والغفلة والعيلة، والذلَّة والمسكنة، وأعوذ بك من الفقر، والكفر والفسوق، والشقاق والنفاق، والسمعة والرياء**».
- الاشتغال بالأموال والأولاد بما لا يلهي عن ذكر الله واجبٌ، وليس بمذموم، وله مراتب.
- إنفاق المال، وتربية الولد، ضمانٌ أن لا يكونا ملهاة للمرء عن ذكر الله تعالى.
- «أفضل مِن ذكر الله باللسان ذكرُ الله عند أمره ونهيه» قاعدة كلية جليلة.
- للقراءة: «**فن الترويح عن النفس**» هادي المُدَرِّسي، و«**الكناية في القرآن الكريم، موضوعاتها ودلالاتها البلاغية**» لأحمد فتحي الحياني.

قال الله تعالى:

وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَّاتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿10﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا اِذَا جَآءَ اَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿11﴾

بذور المعنى

- ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾: هو أمرٌ من الله تعالى للمؤمنين، ولمن هو أهلٌ لأن يخاطب، بالإنفاق مما رزقهم الله؛ فالمالُ ليس مالا حرًّا لهم، وإنما هو هبةٌ من الله تعالى، ولو شاء لأفقرهم، ولكتب لهم التبعية للمنافقين؛ إذن لأسغبوا ولذلُّوا، ولا أحد يملك أن يرفع عنهم هذه الفتنة، إلاَّ الله سبحانه؛ ومن تمام الشكر أن يُنفقوا من هذا المال المرزوق لهم.

- ومن في ﴿مِن مَّا﴾ للتبعيض، أي أنفقوا بعض ما رزقناكم لا كلَّه؛ وفيه توسعة من الله تعالى على المؤمنين؛ ولو شاء لأعنتهم؛ وهذا البعض منه ما هو مقدَّر مثل الزكاة، وزكاة الفطر؛ ومنه ما هو غير مقدَّر، وإنما وجب فيه سدُّ الحاجة الضروريَّة، ومن زاد الله له؛ من مثل الإنفاق على الأهل، والولد، وعلى الحجّ، والجهاد، ونصرة الحقّ، وطلب العلم... وغيرها من أبواب الإنفاق التي لا حصر لها.

- ﴿مِّن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾: ذلك أنَّ الموتَ يأتي بغتة، وقد يكون عاجلاً، ولا أحد يعلم متى وأين يموت؛ فوجب عليه أن يستعجل البرَّ قبل أن يحلَّ به الموتُ، فيخترمه عن الدنيا صحيحا غنيًّا، ولا ينفعه ذلك عند الله شيئًا.

- والآية توجّه المسلم ليكون دائمَ الاستعداد للموت، الذي يأتيه بغتة: ﴿قُلِ اِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ﴾[الجمعة:8]؛ والمؤمن يتمنَّى لقاء الله ولا يخشى الموت، أمَّا المنافق فلا يتمنَّى الموتَ كما في سورة الجمعة عن اليهود: ﴿وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدَاَم بِمَا قَدَّمَتَ اَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمُم بِالظَّالِمِينَ﴾[الآية:7].

- ﴿يَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِي إِلَىٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾: عجيبٌ أمر الذي يدعو الله ربَّه أن يؤخّره إلى

أجل قريب، لا إلى أجلٍ بعيدٍ؛ لأنَّه بعد أن عايَن الموت، علم أنَّ الأجلَ محدودٌ، فلا مطمع له في العمر الطويلِ بعد ذلك؛ وإنما هو يطلب وقتًا قصيرًا، ليؤدِّي فيه واجبًا كان قد فرَّط فيه يوم أن كان صحيحًا شحيحًا، يرجو الغنى ويخاف الفقرَ.

- ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾: قضى الله تعالى أن يكون لكلِّ نفس منفوسة أجلٌ مسمًّى، إذا جاء ذلك الأجلُ فلا أحد يملك تأخيره ولا تقديمه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَاخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾[يونس:49]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المومنون:99-100].

- ﴿وَاللهُ خَبِيرُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: لا تتلهَّوا بما لا ينفعكم عند الله تعالى، اعمَلوا وأنفقوا وأصلحوا؛ لأنَّ ذلك محسوبٌ لكم، الله عليم به وهو الخبير سبحانه، وهو مجازيكم به أحسن الجزاء، إنَّه هو الحليم الكريم جَلَّجَلَالُهُ.

التشغيل والتفعيل

- قوله تعالى ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَنفِقُواْ﴾ يبطل كيدَ المنافقين وضلالهم في قولهم: ﴿لاَ تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ﴾؛

فجاء الأمر بالإنفاق على مَن عند رسول الله ﷺ، وعلى جميع من هو أهلٌ لأن ينفَق عليه، سواءً بالزكاة إن كان مِن مصارفها، أو بالصدقة إن كان أهلاً لها.

- الآية ترسُم لنا الهدف من المال، وهو أن يكون المرءُ من خلاله «متصدِّقا، نافعا للخلق، كريما، سخيا»، وأن يكون بسببه «صالحا، يعمل الصالحات، ويصلح كلَّ ما من شأنه أن يُسأل عنه يوم القيامة».
- هذه الآية وما كان بمعناها، فيها إياس للناس أن يؤخِّر الله آجالهم، وحضٌّ لهم أن يعملوا الصالحات ما داموا قد وجدوا فسحةً من عمرٍ، وبسطةً من نعمةٍ ومالٍ؛ ولا نعمة تنفعُ صاحبها حين تغادر روحه جسده.
- عالجت أواخر «سورة المنافقون» موضوع الفرق بين الفائز والمغبون، ومآل كلٍّ منهما؛ وهي بذلك تمهد لسورة التغابن، لمزيد بيانٍ وتفصيلٍ.

من الفكر إلى الفعل

- في الحديث الشريف، روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد اللَّه عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه اللَّه** عَزَّوَجَلَّ».
- الإنسان في سباق دائم بين فعل الخيرات وحضور أجله؛ فإن هو سابق إلى مغفرة الله فاز، وإن هو غفل وحضرته الوفاة ـ وقد فرَّط ـ خسر الدنيا والآخرة.
- العلاقة بالمال في الإسلام ليست علاقة دنس ورجس، مثل ما هي في المسيحية، وإنما هي علاقة متوازنة، تقوم على أساس الحلال في الكسب، والشرعية في الإنفاق.
- للقراءة: «**فقه الزكاة**» يوسف القرضاوي.
- للتوسع: مؤلفات عز الدين خوجة، ومنشورات مركز الامتثال؛ منها «**المبادئ والقيم الإسلامية في المعاملات المالية: في ضوء النصوص القرآنية والأحاديث النبوية**»، و«**موسوعة المعاملات المالية الإسلامية**».

تفسير

سُورَةِ التَّغَابُنِ

المُيسَّر

قال الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿1﴾

بذور المعنى

- ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾: بسم الله الذي يسبِّح له عالَم الملك والملكوت؛ وهو الذي منح الإنسان ميزة الاختيار بين الخيرِ والشرِّ، وذلك مِن تمام رحمته؛ فأودع فيه من الملَكات ما به ينحت في صُلب التوحيد، فيبني به قارب نجاته يوم القيامة؛ غير أنَّ كثيرا من الناس أعرضوا عن الحقِّ واستكبروا؛ منهم من أنكر البعث رغم وضوح الدلائل؛ فكانوا هم «المغبونين» ﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾.
- ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: لا يزال موكبُ التسبيح يتواصل مع «السور المسبّحات» السبعة؛ وهذه

السادسة في الترتيب المصحفيِّ؛ فجميع ما خلق الله بلا استثناء ولا تخلُّف يعلن التقديس والتنزيه لله جَلَّجَلَالُهُ بصوت واحد مَديد لا ينقطع: سبحان الله.

- الآية معلنة بالتسبيح الكونيّ تربية للمؤمنين ومواساة لهم، ونكاية بالمشركين الضالّين المعرضين؛ أي إنَّ السماوات والأرض في تسبيح دائمٍ، وأنتم أيها المؤمنون صِلوا تسبيحكم الاختياريَّ بتسبيحها؛ أمَّا أنتم أيُّها الكفار فامضوا في غيّكم، وتنكروا للبعث كما هو حالكم؛ إلى أن يأتيكم يوم تغبنون فيه، وتنالون جزاء ظلمكم وكفركم.
- ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾: هو مالك الملك، ولا أحدَ من خلقه يملك شيئا إلاَّ إذا جاءه المُلك من الله تعالى، وجميع ما ملَك وما مُلك وحقيقة المُلك نفسه له وحدَه؛ وله الحمد والثناء والشكر على نعمه الخفيَّة والظاهرة، وهو المحمود حتى وإن لم يحمده أحدٌ من خلقه؛ إذ لا حاجة له إلى حمدِ حامدٍ، ولا إلى شكرِ شاكرٍ: ﴿وَمَنْ يَّشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[لقمان:12].
- ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: قدرة الناس محدودةٌ وقاصرةٌ، وقدرة الله تعالى مطلقةٌ، لا يطالها عجزٌ، ولا توصف بالنقصِ؛ فهو سبحانه على كلِّ شيء قديرٌ؛ ولا شيء يخرج من سيطرته سبحانه؛ فالإيمان بهذا المعنى التوحيديِّ العميق يُطمئِن الإنسان، ويدفعه إلى عبادة الله وحدَه، لا

يُشرك معه أحدًا من خلقه، ولا يتَّخذ من الأسباب معبودًا سواه.

التشغيل والتفعيل

- مِن أعظم الأمارات على الحقِّ مبعثُ رسول الله ﷺ الذي جاء بالنور المبين، ثم أمرَنا سبحانه باتِّباعه إذا أردنا النجاة؛ أمَّا الإعراض عنه فمورد الهلاك؛ ثم هو سبحانه الرحيم الذي ربَّانا برفق على الإنفاق والمسارعة في المبرَّات، ومن تمام جماله وجلاله أنه ﴿شَكُورٌ حَلِيمٌ (17) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[التغابن:18].
- وجه تسمية السورة بالتغابن، أنَّ لفظ ﴿التَّغَابُنِ﴾ لم يرد في القرآن الكريم إلاَّ في هذه السورة: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾.
- لم يرد ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في الآية الأولى شأن المسبّحات الأخرى، فورد في الآية الأخيرة من السورة: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

من الفكر إلى الفعل

- لله سبحانه الملك كله، أوَّله وآخره، ظاهره وباطنه، ما علمنا منه وما لم نعلم.
- «أحبُّ الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ لا يضرك بأيهن بدأت». هذا الحديث مانع من المفاضلة بين التسبيح والتحميد والتكبير. هنَّ جميعا من مشكاة واحدة.
- الإكثار من التسبيح الذِّكريّ مع حضور القلب يورّث اليقين؛ والمداومة على التسبيح العمليّ بالاستجابة لأمر الله تعالى يُنيل صاحبه رضا الله تعالى، ويبشّره بجنات ونعيم.

قال الله تعالى:

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤمِنٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿2﴾

بذور المعنى

- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾: الله تعالى المنزَّه والمسبَّح، الذي له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيء قديرٌ؛ بحسبان هذه المقدِّمات خلقَ الإنسَ والجنَّ، وخلق كلَّ مكلَّف؛ وأمدَّهم بالحرية التي بها يختارون بين الحقِّ والباطل، بين الإيمان والكفر.
- وخلق الله تعالى للإنسان آيةً من الآيات التي بسط القرآن الكريم القولَ في مراحلها، وما يترتَّب على ذلك من أحكام؛

وليس أمرُ الخلق على الله تعالى بعسير: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[لقمان:28].

- ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّومِنٌ﴾: ولقد اختار فريقٌ من الناس الكفرَ، وهم الغالب والأكثر عددًا، ولذا قدِّموا في الترتيب وفي الذكر: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُومِنِينَ﴾[يوسف:103]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُومِنُونَ﴾[هود:17]؛ ثم كان فريقٌ من الذين استجابوا لربهم، وآمنوا، وهم خلاصةُ الكون، وعصارةُ البشريَّة؛ إنَّهم قلَّة وقليلٌ في العدد: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[سبأ:13]، ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[ص:24].
- ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: الله تعالى بصيرٌ بما يختلجُ في قلوبكم، وبصيرٌ بما يصدر من ألسنتكم، وبصير بما تجترحون من عملٍ بجوارحكم؛ فيجازي كلَّ عاملٍ بما عمِل، ولا تخفى عليه خافيةٌ.
- كأنَّه قيل للمؤمنين: اطمئنُّوا، فإنَّكم لا تُبخسون شيئا مِن أعمالكم، والله بصيرٌ بها يحصيها عليكم، فتجدونها يوم القيامة ماثلة أمامكم نعيمًا ورضًا.
- ثم كأنَّه قيل للكافرين: افعلوا ما شئتم، فإنَّ الله تعالى بصير بما تعملون، وستجدون خزي عملكم عند الله يوم التغابن، جحيمًا وسخطًا: ﴿وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ

يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف:49].

التشغيل والتفعيل

- لا أحد من البشر ادَّعى الخلقَ، أو نسبَه لنفسه، ولا يقدر على ذلك أحدٌ؛ ولكن مع ذلك تجرَّأ الناس حينَ نفوهُ عن الله الخالق الواحدِ الأحدِ، وزادوا على ذلك أنهم عبدوا غيرَه ظُلما وفَسادا وعلوًّا: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[النحل:20].
- أشكل على المفسِّرين معنى ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّومِنٌ﴾ وذكروا فيه توجيهات كثيرةً، بسط فيها القرطبي القولَ في تفسيره الجامع؛ وقد مال بعضُ المتقدِّمين إلى آثار فيها معنى الجبر ليفسِّر بها الآية؛ واختار بعضُ ما يفيد أنَّ الله تعالى خلقَ أصل الإيمان وأصلَ الكفر، ثم خلق البشرَ، وأودع فيهم القدرةَ على التمييز، والميزانَ الذي به يختارون؛ وهو سيحاسبهم على اختيارهم. والمسألة للبحث؛ غير أنها ـ لو تأمَّلناها بعمقٍ ـ من القدَر الذي لا يملك عقلُ الإنسان البتَّ فيه، فالتسليم لله أولى وأسلم، والحقُّ ما قاله رسول الله ﷺ في هذا الشأن: «**اعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خلق له**»[رواه الشيخان].
- حين ناظر سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عدوَّ الله النمرود، تحدَّاه

بأنَّ الله تعالى ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فقال له: ﴿أَنَآ أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، غير أنَّ نبيَّ الله غيَّر الموضوع وتجاوز المغالطة فقال: ﴿إِنَّ اللهَ يَاتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَاتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾؛ ثم كانت النتيجة ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[البقرة:258]. ولم يقع التحدِّي بالخلق من عدم؛ وهو أظهر من الإحياء والإماتة، ولو وقع كذلك لكان البهت والخرص حظ النمرود الجحود.

∴ «عندما ينتفي من الحياة الإنسانية الوهمُ والعوج، فلن يبقى إلاَّ شيء واحد هو: الإيمان. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾»[محمد الغزالي].

من الفكر إلى الفعل

- الاعتراف لله تعالى بالخلق، والإيمان بذلك، هو الدافع لطاعته كما أمر.
- البحث العلميُّ في تخصُّصات من مثل «الهندسة الوراثية»، و«البيولوجية الحيوية»... من منطلق «حقيقة الخلق» عوضا عن «نظرية التطور»، من أوكد الواجبات على الأمَّة، وعلى الشباب المتعلِّم بخاصة.
- «**كلُّكم يدخل الجنة إلاَّ من أبى**».
- ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾.
- ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.
- «اعملوا فكل ميسَّر لما خلق له» قاعدة في الإيمان.
- للقراءة: «**الجامع لأحكام القرآن**» للقرطبي، و«**ركائز الإيمان بين العقل والقلب**» محمد الغزالي.

قال الله تعالى:

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿3﴾

بذور المعنى

- ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾: تلك السماوات والأرض التي تسبِّح لله تعالى، وجميعُ الخلائق الأخرى كذلك؛ لم تُخلق عبثًا بلا غاية ولا مقصدٍ؛ وإنَّما خُلقت بالحقِّ، لغايةٍ واضحة ومعلومة هي الحقُّ، وهي أن تَعبد الله تعالى، وأن تسبِّحه، وأن تكون مسرحًا للإنسان المخيَّر بين الحقِّ والباطل، بين الإيمان والكفر؛ فيتناغم معها المؤمنُ، ويتمرَّد عن بديع نظامها الكافرُ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ (38) مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾[الدخان:38-39].
- ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾: الله تعالى خلق الإنسان

لحكمة وغايةٍ أرادَها، وحدَّد له وظيفته في حركة الوجودِ؛ وهي أن يعبد الله ولا يُشرك به شيئًا، وأن يعمُر الحياة بالصلاح ويمنع عنها الفسادَ؛ وأن يكون مع الحقِّ ضدَّ الباطل؛ ولقد جهَّزه ربُّه بصورةٍ وقِوام، وأعضاء وملكاتٍ، حسنةِ التنسيق، جميلةِ المنظر، بديعةِ التناسق: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين:4]؛ ومنطق الأمور أن يشكر هذا الإنسان ربَّه، وأن يحمده على أن خلقه بهذه الصورة، ولم يخلقه على صورة قبيحة، فيكون من صنف المؤمنين، لا من رهط الكافرين.

- ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾: الغاية التي أرادها الله للكون المخلوق بالحقِّ، وللإنسان الذي أحسن خلقَه، هي أن تصير الأمورُ في نهاية المطاف إلى الله جلَّ في علاه، إليه هو سبحانه: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[غافر:16]، ﴿وَكُلٌّ ـ اتُوهُ دَاخِرِينَ﴾[النمل:87]؛ فيجازي المحسن على إحسانه، ويعاقب المسيء على إساءته، ويسرِّح ما انتهت وظيفته من خلقه فيبيدُه ويذهبُ به حتى يصير عدمًا.

التشغيل والتفعيل

- جميع ما خلقه الله تعالى له وظيفةٌ يؤدِّيها، ومهمَّة خُلق لأجلها؛ وخلقُ السماوات والارض لوظيفة نفع البشرِ، وتوفير السكن المريح لهم؛ كيما يعبدوا الله تعالى كما أمر:

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[فصلت:11]، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة:29].

- من بين النظريات التي تفسِّر نشأة الكون، يمكن أن نرصد: «نظرية الكون الساكن»، «نظرية الانفجار العظيم»، «نظرية التضخم الكوني»، «نظرية الكون الثابت»... وغيرها كثير.
- فعِظَم الكون وكبره وامتداده، أمدَّنا بتساؤلات كثيرة عن أصله؟ ومن أين أتى؟ ولماذا نحن فيه؟ وإلى أين سيأخذنا؟ متى بدايته؟ متى نهايته؟ كيف بدأ؟ كيف ينتهي؟ بعض الأجوبة ذات طبيعة مادية فيزيائية، وبعضها يفوق قدرة العقل البشريِّ على الإدراك، وهو بالتالي من مقام أعلى من مقام العلوم مجتمعة.
- عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رآني النبي ﷺ وأنا أحرِّك شفتي فقال لي: «**بأي شيء تحرِّك شفتيك يا أبا أمامة؟**» فقلت: أذكر الله يا رسول الله. فقال: «**ألا أخبرك بأفضل ـ أو أكثر ـ من ذكرك الليل مع النهار، والنهار مع الليل؟ أن تقول: سبحان الله عدد ما خلَق، سبحان الله ملء ما خلَق، سبحان الله عدد ما في الأرض والسماء، سبحان الله ملء ما في السماء والأرض، سبحان الله ملء ما خلق، سبحان الله عدد ما أحصى كتابُه، وسبحان الله ملء كلِّ شيء، وتقول: الحمد لله، مثل ذلك**»[الهيثمي: مجمع الزوائد].

من الفكر إلى الفعل

- ﴿تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.
- «سبحان الله عدد ما خلق، سبحان الله ملء ما خلق، سبحان الله عدد ما في الأرض والسماء...».
- ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ (8) كَلاَّ﴾.
- علم تاريخ الكون (الكوسمولوجيا) هو العلم الذي يدرس أصل الكون، ونشأته، وتاريخه، ومحتوياته، وتطوُّره؛ ودراسة البنية الواسعة للفضاء، بكلِّ ما فيه من مادَّة وطاقة... وواجبٌ على المسلمين أن يكون لهم حضورٌ فعَّال فيه، من خلال القرآن الكريم، والبحوث العلمية التجريبية الجادَّة.
- للقراءة: «**بداية الكون من الأفلاك إلى البشر**» جون فايغر.

يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿4﴾

بذور المعنى

- ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾: ذُكرت السماوات والأرض ثلاث مرَّات في أربع آيات: الأولى في مقام التسبيح، والثانية في مناسبة الخلق، والثالثة في سياق العلم: ﴿يُسَبِّحُ﴾، ﴿خَلَقَ﴾، ﴿يَعْلَمُ﴾؛ والمعاني مرتبطة ارتباطا كلِّيًّا، إذ الذي خلق السماوات والأرض سبحانه يعلم ما فيها، والسماوات والأرض في اعترافها لله تعالى بالخالق تسبِّح له ولا تفتر.
- ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾: ذكر الله تعالى في الآية الثانية أنه ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وفي هذه الآية بيَّن

معنى ذلك بأنه سبحانه: يعلم ما تسرُّون وما تُعلنون؛ وأنه تعالى ﴿عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ وكلُّ هذه المعاني مقدِّمة للاختيار الذي وهبه الله تعالى للإنسان أن يكون مؤمنًا، أو يكون كافرًا؛ غير أنَّه مصير متوقِّف على هذا العلم من الله تعالى.

- ﴿وَاللَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: الآية تدفع شبهة من ينكر المعاد، ومن لا يؤمن أنَّ المصير إلى الله سبحانه، وهو قولهم: كيف يحشر الله الخلائق بعد فنائها؟ وكيف له أن يجمع شتاتها وقد بادت وانتهى أمرُها؟ فكان الجوابُ أنَّه سبحانه هو الذي خلقها، وهو الذي يعلم ما فيها، وهو العليم بمخزن النوايا فيما تسرُّون فيه من أسرارٍ، وبحقيقة العمل فيما تعلنون عنه من أقوال أو أعمال.

التشغيل والتفعيل

- علم الله تعالى مطلقٌ، فهو يعلم كلَّ شيءٍ، مما يدرك الإنسان وصفَه، ومما لا يدرك وصفه؛ فليس علم الله تعالى متعلِّقا بمخلوق من مخلوقاته القاصرة، المحدودة في ملكاتها، العاجزة عن الإحاطة بما حولها من جواهر وأعراض؛ ومن باب أولى هي عاجزة عن معرفة ما يسرُّ عنها، وما هو غيب نسبيٌّ أو مطلقٌ باعتبار مداركها؛ ولذلك كانت القاعدة التي لا تخطئ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[الإسراء:85].

- ينبغي أن نفرِّق بين ثلاثة مستويات للعلم في القرآن الكريم، بل وفي أصل الكون «نظرية الوجود»، وأصل المعرفة «نظرية المعرفة»؛ هذه المستويات هي: علم الله تعالى المطلق الذاتيِّ الذي لا ينتهي ولا حدَّ له؛ العلم بمعنى الإيمان والذي يستند إلى حيثيات أعلى من قُدرة العقل البشريِّ على الاستدلال «أي الوحي»، والعلم المتجدِّد العقليُّ الاستدلاليُّ الكسبيُّ بجميع مراتبه وتخصصاته.

من الفكر إلى الفعل

- عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كان النبي ﷺ، يقول: **اللهم انفعنا بما علَّمتنا، وعلِّمنا ما ينفعنا، وزدنا علما إلى علمنا**».
- ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَآ﴾.
- ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.
- جهاد العلم، والسعي في العلم، من أعظم الجهاد في الإسلام.
- أول أمر نزل من السماء: ﴿اقْرَأْ﴾، وثاني أمر: ﴿اكْتُبْ﴾ في قوله تعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. أي أقسم سبحانه بالدواة والقلم وما يكتبون؛ والكتابة ثمرة من ثمرات القراءة.
- للقراءة: «**صورة العلم في القرآن الكريم**» ضمن كتاب «**العلم والعالم**» محمد باباعمي.

قال الله تعالى:

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿5﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَّاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿6﴾

بذور المعنى

- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾: أيها الكفَّار المنكرون للبعث، والشاكُّون في المصير، الكافرون نعمَ الله تعالى عليكم، أجيبوا عن هذا السؤال اليومَ، وسوف تُسألون عنه يوم القيامة: ألم يأتكم خبر الذين كفروا مثلكم من قبل؟
- أو الخطاب للمؤمنين تحذيرا لهم، وتذكيرا بمصير من كان قبلهم من الأمم، وبمصير الكافرين في الدنيا والآخرة؛

والمؤمنون ينتفعون بالذكرى خلاف الكفَّار والمنافقين: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤمِنِينَ﴾[الذاريات:55].

- ﴿نَبَأُ﴾ هو الخبر العظيم الذي لا يخفى، وهو الخبر اليقين الذي لا شكَّ فيه؛ وذلك مثل نبأِ قوم نوح، وعاد، وثمود؛ أو هو نبأ الذين انهزموا على يدِ المسلمين من قريب في بدرٍ وغيرها.
- ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾: الوبال هو: الشدَّة والضيقُ، وسوءُ العاقبة والمنقلَب؛ أمَّا الأمر فهو الشأنُ والحالُ.

وهؤلاء الذين كفروا ذاقوا في الدنيا العذاب، كأنهم أدركوا طعمَه بلسانهم، ويوم القيامة سيطعمونه ببطونهم حتى يملأ جوفهم؛ كنايةً عن كون عذابِ الدنيا ما هو إلاَّ قليل إذا ما قيس بعذاب الآخرة، وهو العذاب الأليم: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الاَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:26]. أو هو أسلوبٌ للتهكُّم، على شاكلة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقِ اِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[الدخان:47-49].

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّاتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوٓا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾: إنَّهم ما استحقُّوا وبال الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة، إلاَّ بسبب أنَّ رسلَهم كانت تأتيهم بالآيات البيِّنات الواضِحاتِ، التي لا لبسَ فيها ولا غموض؛ فكذَّبوا

الرسلَ، واستنكروا أن يرسَل إليهم بشرٌ مثلهم؛ وطلبوا أن ينزل عليهم ملائكة، كما في قوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ (8) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الآيتان 8-9].

- ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾: كذَّبوا بالرسل وبالوحي، واختاروا الكفر على الإيمان؛ وأعرضوا عن النظر في الحقِّ المبين، وعن الاعتبار بمن سبقهم من الكفَّار الجاحدين؛ ولم يتِّعظوا بمصيرهم وسوء عاقبتهم. والتولِّي هو العودة والرجوع، وهو الانصراف عن المكان الذي أنت فيه إلى مكان كنتَ فيه من قبلُ؛ والتولِّي الإدبارُ والإعراض عن الشيء؛ وهو مستعارٌ في الآية للإعراض عن قبولِ دعوة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.
- ﴿وَاسْتَغْنَى اللهُ﴾: الله تعالى غنيٌّ عن هؤلاء، وهو غنيٌّ عن كلِّ خلقه، فهم المحتاجون إليه، وهو لا ينتفع منهم في شيء: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[فاطر:15]، ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[النساء:147].
- ومن معاني ﴿وَاسْتَغْنَى اللهُ﴾ أي سبحانه مع كونهم كفروا وتولوا لم يقهرهم على الإيمان، ولم يضطرَّهم إليه، وهو سبحانه قادرٌ على قهرهم؛ وما ذلك إلا أنه مستغنٍ عنهم وعن عبادتهم.

- ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾: هو الغنيُّ بذاته، وجميع من سواه فقيرٌ إليه؛ فهو أهلٌ لكلِّ حمدٍ، حتى وإن لم يحمده حامدٌ من الخلق؛ فهو غنيٌّ في الأزل، وفي الأبد، وفي كلِّ زمان ومكان، وفوق اعتبار الزمان والمكان؛ وهو المحمود من قِبل الموجودات جميعا، والإنسان المتمرِّد الكافر هو الوحيد الشاذُّ، الذي تكبَّر وأعرض عن حمده، وتنكَّف عن الاعترافِ له بأنه أهل لكل محمَدة. والله تعالى محمودٌ بلسان الحال قبل لسانِ المقال، وهو جَلَّجَلَالُهُ حميدٌ في كل أمرٍ دنيًا وآخرةً.

التشغيل والتفعيل

- «أنكر المشركون أن يكون الرسل بشرًا، ولم ينكروا أن يكون الله حجرًا»[الزمخشري].
- ﴿اسْتَغْنَى﴾: الاستغناء طلب الغنى، ولكن الله تعالى غنيٌّ بذاته وهو لا يطلُبه؛ فكان المعنى إظهارُ الغنى، أي هو سبحانه غنيٌّ عنهم، وغنيٌّ عن كلِّ شيء؛ لا حاجة له إلى أحد أو شيء من خلقه.
- بين سورتي التغابن والطلاق مناسبة في الحديث عن القرية التي كفرت، وبيان عاقبتها؛ وقد ذكِروا في التغابن بصفة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وفي الطلاق بـ«القرية التي عتت اَمر ربها»؛ وفي التغابن: ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾، وفي الطلاق: ﴿فَذَاقَتْ

وَبَالَ أَمْرِهَا﴾.

- وردت لفظة ﴿وَبَالَ﴾ في القرآن الكريم أربع مرات: في سورة المائدة، والحشر، والتغابن، والطلاق. وارتبطت بفعل «ذاق»، مع الإضافة إلى «الأمر» في جميع هذه الآيات: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾، ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾، ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾، ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾.

من الفكر إلى الفعل

- الأمر بالنظر في عاقبة الأمم السابقة، والاعتبار بها وبمصيرها، هو للوجوب ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.
- منهج قراءة التاريخ في الإسلام ينحو منحى العبرة، لا منحى السرد الموضوعي للمعلومة.
- من كان سائلا فليسأل الغنيَّ الكريم؛ وليس في الوجود غنيٌّ على الحقيقة، ولا كريمٌ على التحقيق، إلا الله ﴿الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ سبحانه.
- «اللهم يا غني يا حميد، يا مبدئ يا معيد، يا رحيم يا ودود، أغنني بحلالك عن حرامك، وبفضلك عمن سواك، وبطاعتك عن معصيتك».
- للقراءة: «**المقدمة**» لابن خلدون؛ و«**دفاع عن التاريخ الإسلامي، المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره**» محمد رشاد خليل..

قال الله تعالى:

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿7﴾

بذور المعنى

- ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾: أنكرَ الكافرون رسالةَ الإسلام، وترتَّب على ذلك إنكارهم للبعث، وتماديهم في غيّهم وضلالهم؛ وهم قد أعرضوا عن اليقين، وتشبَّثوا بالزعم والظنِّ الباطلِ، غير المؤسَّس على حجَّة ولا برهانٍ؛ زعموا أنهم لن يُبعثوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[الواقعة:47].

- ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾: أمر الله تعالى رسوله أن يردَّ على الكفَّار المنكرين للبعث بإثبات البعث، واعتمادِ الأسلوب الحجاجيِّ العقليِّ؛ ووظَّف في ذلك صيغ التوكيد «القسَم،

واللام، والنون الثقيلة»؛ يقينًا ستبعثون وستحشرون.

- أمَّا صيغة ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ فتفيد تسفيه زعمهم، وتعريته من كلّ سندٍ.

- ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾: توكيدٌ آخر، أنهم حين يُبعثون، سيحاسَبون، وسيُخبرون بما عملوا من سوءٍ وضلالٍ، وبما قدَّموا من جحود وشرك، ومن زعم كاذب: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾[المجادلة:6].

- هذا دليل أوَّل، وهو أنَّ الناس في الدنيا يعملون، منهم مؤمن ومنهم كافر ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾[الإسراء:84]؛ ولا ينزل عليهم الحساب حسبَ عملهم، فلقد يَغنى الفاجر ويفقر المؤمن؛ ولو كان الحال هذه بلا بعثٍ، لكان الخلق مبنيًّا على خلل واختلال، والحال أنَّكم عرفتم أنَّ السماوات والأرض وما بينهما جميعها تسير على هدًى، في نظامٍ بديع، بلا خلل ولا فطور؛ فكيف يصدر الخلل من الخالق في هذه ولا يصدر في تلك؟.

- ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾: والدليل الثاني هو أنه لا شيءَ يعسُر على الله تعالى، فكلُّ شيء يسيرٌ عليه سبحانه، وهو القادر والقويُّ. والبعثُ، والحشر، والحساب، وإحصاء الأعمال على الناس، وعقاب الكفار... جميع ذلك سهلٌ يسيرٌ على الله تعالى، لا كما زعموا بمقاييسهم البشرية القاصرة، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[ق:44]، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا

أَرَادَ شَيْئًا اَنْ يَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:82].

- والدليل أنَّ الله لا عسيرَ عليه، وكلُّ شيء يسيرٌ في حقِّه تعالى؛ هو ما تشاهدون من أمر الخلق، والرزق، والصنع، والإحياء، والإماتة، وإذهاب قوم، والإتيان بآخرين، وعذاب المكذِّبين من الأمم السابقة... فلا شيء يُعجزه سبحانه. ومن كان له دليل غير هذا فليُظهره.

التشغيل والتفعيل

- الزعم له معانٍ عديدة منها: الكذب، والقولُ بلا دليل، وقولُ الباطل، ودعوَى العلم؛ وهو من الأفعال التي تُفيد المعنى وضدَّه، ذلك أنَّ من معاني الزعم العلمُ واليقينُ والاعتقادُ؛ والسياق هو المحدد للمعنى والمفهوم.
- عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال: «**لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسيرٌ على من يسَّره الله عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئا**...»الحديث [رواه الترمذي]. مصدر اليسر كله هو الله تعالى، وهو يجعل الحزَن إذا شاء سهلا، والصعب إذا أراد يُسرا..

من الفكر إلى الفعل

- ثبت عن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، وأنت تجعل الحزَن إذا شئت سهلاً**».
- جدال المنكِر للبعث يقوم على الاستدلال العقليِّ، ذلك أنه لا يؤمن بالنقل؛ ومن ثم وجب على المسلم أن يتمرَّس في «مناهج الاستدلال».
- على المؤسَّسات التربوية بمختلف مستوياتها تعليم الشباب «المنطق» و«الحجاج» و«مناهج الاستدلال»؛ ذلك أنهم اليوم عرضة للمغالطات، والتحريفات، والشك في الحقّ، وفي الدين، وفي القيم...
- للقراءة: «**موقف العقل والعلم والعالم من ربِّ العالمين**» مصطفى صبري. و«**كبرى اليقينيات الكونية**» محمد سعيد رمضان البوطي.

قال الله تعالى:

فَئَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِيٓ أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿8﴾

بذور المعنى

- ﴿فَئَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: ما دام البعثُ آت لا محالةَ، وما دمتم محاسَبين عند الله ولا ريب؛ فالذي ينفعكم يومئذٍ هو أن تؤمنوا بالله ورسولِه وقرآنِه؛ أي أن تُعلنوا معنى الشهادة كاملةً غير منقوصة، وتكونوا مؤمنين بها إيمانًا لا يخالطه شكٌّ ولا وهمٌ. هذا هو اليقينُ الحقُّ، لا ما تزعُمون من إنكار للنبوَّة والبعث، مما لا دليل لكم عليه.
- ﴿وَالنُّورِ الَّذِيٓ أَنزَلْنَا﴾: هذا النور هو القرآن الكريم ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[المائدة:15]؛ فهو نورٌ لأنَّ من يحتمي به، ويهتدي بهديه، تزول عنه الظلماتُ، وتُفتح

له السبل والمسالك في الدنيا، ويجد نورا ساطعا يسير به يوم القيامة، ولقد اقتبسه من قبلُ، من اليومِ الذي كان فيه مخيَّرا بين أن يؤمن وأن يكفر، ويوم كان عاقلا قادرا على التمييز: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾[الحديد:13].

- ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: هذا المعنى تتمة لقوله تعالى: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾؛ ولا يمكن ذلك يوم القيامة إلاَّ إذا كان الذي ينبؤكم به وهو الله جَلَّجَلَالُهُ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، وهو سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[التغابن:4]. وما دام الله تعالى عليمٌ بدقائق أعمالكم فآمنوا به وبرسوله وبكتابه، ذلك خيرٌ لكم.

التشغيل والتفعيل

- في أسلوب الآية من التحبيب والتقريب، وكسبِ القلوب؛ مع ترك التجريح والتعنيف، وتنفير القلوب؛ ما لا يخفى على من يتذوَّق بيان القرآن.
- عدل تعالى عن مقتضى الظاهر ﴿اَنـزَلَ﴾ أي الله، إلى ﴿أَنزَلْنَا﴾ تعظيما للقرآن الكريم المنزَّل.
- الفرق بين ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ و﴿خَبِيرُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ هو أنَّ العمل إذا كان مما يعلمه الناس عادة فيقدَّم العمل، وإذا

كان مما لا يعلمه الناس عادة قدِّم خبير على ما تعلمون؛ هكذا ورد في بعض المصادر، ولكني غير مقتنع بالتمييز؛ ذلك أنَّ حقيقة الإيمان بالله ورسوله في هذه الآية قد تكون مما لا يعلمه إلاَّ الله تعالى، ومع ذلك قدَّم بما تعملون؛ ولذا لا بدَّ من بذل جهد أكبر لفهم الفرق وتبيانه، وهذا مجال للبحث خصبٌ في بلاغة كلام الله تعالى، وجمال بيانه، وحسن ترتيبه.

- الآية في شقّيها جمعت بين الإيمان النظريِّ القلبيِّ التصديقيِّ والإيمان العمليِّ التطبيقيِّ التمثليِّ؛ فجمعت بذلك بين السبب والنتيجة، بين البذرة والثمرة.
- يقول هوستن سميث: «إنَّ الأسئلة النهائية التي يريد البشر معرفتها، مثل: ما معنى الوجود؟ لماذا يوجد الألم والموت؟ في النهاية ما الذي يجعل الحياة تستأهل أن نعيشها؟ ما هي الحقيقة؟ ما موضوعها وهدفها؟ تشكِّل في الواقع الجوهرَ الحاسم لإنسانيتِنا، إنَّها ليست مجرَّد تأملات وتخمينات غير موزونة».

من الفكر إلى الفعل

- مدح الله سبحانه نفسه بقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ فجرت مجرى المثل.
- الإيمان الله تعالى يستوجب الائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه؛ والإيمانُ بالرسل الكرام يستدعي اتباع نهجهم، واتخاذهم أسوة وقدوة في كلّ شيء.
- أمِرنا بأن نجادل أهل الكتاب والكفَّار، بالتي هي أحسن، وأن نُخلص النيَّة في دعوتنا لهم، لعلَّ الله تعالى يكتب الهداية لهم، فننال أجر ذلك عند الله.
- للقراءة: «**لماذا الدين ضرورة حتمية: مصير الروح الإنسانية في عصر الإلحاد**» هوستن سميث.

قال الله تعالى:

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنۢ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

بذور المعنى

- ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾: ما ذُكر من قبل من أمر البعث، ومن الأمر بالإيمان، ثمرتُه أنَّه سيأتي اليوم الذي يجمعكم الله فيه على صعيدٍ واحدٍ، على اختلاف أزمانكم من لدن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى يوم القيامة، وعلى اختلاف أمكنتكم، وعلى اختلاف خياراتكم بين الإيمان والكفر، والحقِّ والباطل؛ جميعًا سيجمعكم الله ليُحاسبكم، وليخبركم بما عملتم من قبلُ، ثم ليجازي كلَّ واحد بما يستحقُّ من جزاء؛ ولذلك سمي ﴿يَوْمِ الْجَمْعِ﴾.
- قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ

مَّشْهُودٌ﴾[هود:103]، ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[الشورى:7]؛ وهو يوم الحشر، قال سبحانه: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[الكهف:47]. قال رسول الله ﷺ في حديث طويل: «**يجمع الله الأوَّلين والآخرين لميقات يوم معلوم قيامًا، أربعين سنة، شاخصة أبصارهم إلى السماء، ينتظرون فصلَ القضاء**»[الهيثمي: مجمع الزوائد].

- ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾: بهذا المعنى سمِّيت السورة، ولم يرد تسميَّة يوم القيامة بيوم التغابن في أيِّ موضع آخرَ من القرآن الكريم؛ والغبنُ هو ما كان مخفيًّا في البيع، وهو الخديعة والنقص والخسارةُ، والتغابن على صيغة التفاعل للدلالة على الكثرة والشدَّة مجازًا، أو هي على المفاعلة بين فريقين يُعين بعضُهم بعضا في التجارة وفي غيرها.
- وذلك يومٌ يُغبن فيه الكافر غبنا شديدا بأن ينال عذابًا أليمًا، والغابن لهم على صيغة المشاكلة هو الله تعالى العدلُ في حكمه؛ أو هو يومٌ يَغبن فيه الناسُ بعضهم بعضا؛ وهنالك يظهر الذي ربح البيع وهو المؤمن، والذي خسر البيع وهو الكافر: فالمظلوم يَغبن الظالم، والسعيد يَغبن الشقيَّ؛ خلاف الدنيا، التي كان فيها الظالم هو الغابن ظاهرًا، والشقي الفاجر هو السعيد في الظاهر أحيانًا.
- ﴿وَمَنْ يُؤْمِنۢ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا نُّكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾: في

ذلك اليوم الذي يجمع فيه الناس، في يوم التغابن، يَنقسم الناس إلى مؤمن وكافر، إلى سعيد وشقيٍّ؛ فالفريق الأوَّل هم الذين آمنوا بالله، وعملوا العمل الصالح؛ أولئك يكفِّر الله عنهم سيئاتهم، ويغفر لهم ذنوبهم، ليدخلوا الجنَّة بيض الصحائف لا ذنب لهم.

- ﴿وَنُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾: من جمع بين الإيمان بالله حقَّ الإيمان، والعمل الصالح حقَّ الصلاح؛ أعدَّ الله الكريمُ لهم مُقامًا مخلَّدا، جنَّات لا جنَّة واحدة، تجري من تحتها الأنهار لا نهر واحدٌ؛ كنايةً عن الانبساط في الزمان والمكان والحالِ.
- ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: الفوز العظيم هو أن يوفَّق الإنسانُ إلى الإيمان والعمل الصالح، ثم يقبَل منه ذلك، ويجازى به خير الجزاء؛ ولا فوز أعظم منه؛ فإنَّ الذي عظَّمه هو خالقه وخالق الكون كله، سبحانه هو ﴿اللهِ الْعَظِيمِ﴾.

التشغيل والتفعيل

- من معاني التغابن، وهو على صيغة التفاعل، أنَّ جميع الناس مغبُونون يوم القيامة، فالمؤمن مغبون لأنَّه لم يعمل لآخرته أكثر ممَّا عمل، والكافر مغبون لأنَّه ضيَّع العمل؛ والوجه المشترك بينهما أنهما لم يقدرا هذا اليوم حقَّ قدره؛ ولكن شتَّان بين غبنٍ وغبنٍ.

- قال مقاتل: «لا غبن أعظم من أن يُدخل هؤلاء الجنَّة، ويُذهب بأولئك إلى النار». ومن الغبن أنَّ أهل الجنة نزلوا في الجنَّة في منازل الأشقياء التي كانت أعِدَّت لهم فضيَّعوها، وأهلُ النار نزلوا في النار منازل السعداء التي كانت معدَّة لهم فنجوا منها بإيمانهم وعملهم: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[آل عمران:185]، ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جُثِيًّا﴾[مريم:71-72].

- قال ابن عاشور بعد أن فسَّر الآية وأطال: «هذا هو المتعين في تفسير هذه الآية، وأكثر المفسِّرين مرَّ بها مرًّا، ولم يحتلب منها درًّا. وها أنا ذا كددت ثمادي، فعسى أن يقع للناظر كوقع القراح من الصادي، والله الهادي». هدانا الله، ونجَّانا يوم التغابن من كل غبن.

من الفكر إلى الفعل

- تذكُّر يوم الجمع، ويوم التغابن، ينشِّط المسلم للإيمان والعمل الصالح؛ أمَّا الكافر والمنافق فيدفعهما إلى الشك والريب، إنهم المغبونون حقًّا.
- «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ**» حديث شريف.
- قال الإمام علي: «من تساوى يوماه فهو مغبون، ومن كان أمسُه أفضل من يومه فهو ملعون، ومن لم ير الزيادة في دينه فهو إلى النقصان، و من كان إلى النقصان فالموت خير له من الحياة».
- بالتجريد ينفصل الإنسان الواحد إلى ذاتٍ غابنة، وذاتٍ مغبونة: غابن فيما توحي به نفسه من نوازع وأعمال، ومغبون فيما يعمله ويجترحه تحت تأثير نفسه الغابنة. وذلك ما يفهم من دعاء الجمعة: «**ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا**».

قال الله تعالى:

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِئَايَاتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِيسَ الْمَصِيرُ ﴿10﴾

بذور المعنى

- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: الصنف الثاني الذي يَمِيزُ من المحشر، يوم التغابن والحساب، هم الذين كفروا بالله تعالى، فلم يقدِروه حقَّ قدره، وكفروا برسوله ﷺ، فاستقلُّوه أن يكون منهم ومن البشر، وكفروا بما بشَّر به المرسلون من قبل.
- ﴿وَكَذَّبُوا بِئَايَاتِنَآ﴾: وزادوا إلى كفرهم التكذيبَ بآيات الله البيِّنات، وكتابِه المبين؛ فلم يجعلوه مصدرَ هدايتهم، ولا محلَّ ثقتهم، بل راحوا يبحثون عن الحقِّ من غير مظانِّه،

ووظَّفوا الزعم منهجًا لصناعة قناعاتهم الخاطئة؛ فتنكَّبوا عن الصراط المستقيم.

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: يكفي أن يكون الإنسان من ضيوف النار، لكن أن يبلغ مرتبة الصُّحبة، فيألف النار وتألفه، ويصحبها وتصحبه، ويداوم المكث فيها ولا يغادرها؛ فذاك شقاء عظيم، وعذاب معنويٌّ وماديٌّ لا يطاق.
- ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: لا مطمع لهم في الخروج منها يومًا، فهم أبدا يصطلون بعذابها: ﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾[الإسراء:97]، ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾[الحج:22].
- ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾: سبق في أوَّل السورة أن قال تعالى ﴿إِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، وها قد انتهت أحداث الحياة ودارِ الاختبار، وأدخل أهل الجنَّة الجنَّة، وألقي بأهل النار في النار؛ فإن يكن مصير الأولين حسنًا، فإنَّ هؤلاء لهم «سوءُ المصير».

التشغيل والتفعيل

- ذكر الغزالي في الإحياء أنه «لما احتضر سفيانُ الثوري جعل يبكي ويجزع، فقيل له: يا أبا عبد الله، عليكَ بالرجاء فإنَّ عفو الله أعظم من ذنوبك، فقال: أوَ على ذنوبي أبكي؛ لو

علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا».

- ورد في القرآن الكريم ﴿بيس﴾ واحدا وأربعين مرَّة، وجاء مضافًا إلى ﴿المصير﴾، وإلى ﴿الْمِهَادُ﴾، و﴿الْقَرَارُ﴾، و«مثوى الكافرين»، و«مثوى المتكبِّرين»، و«مثوى الظالمين»، و﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، و﴿مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، و﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، و﴿الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾، و﴿الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾، و﴿الشَّرابُ﴾... وغيرها.

من الفكر إلى الفعل

- قال ﷺ: «**ما سأل رجلٌ مسلمٌ الله الجنة ثلاثاً، إلا قالت الجنة: اللهم أدخله الجنَّة، ولا استجار رجلٌ مسلمٌ الله من النار ثلاثاً، إلاَّ قالت النار: اللهم أجره مني**».
- كان الأئمَّة من السلف يخافون سوء الخاتمة خوفًا شديدًا؛ ويسألون الله حُسن الخاتمة بإلحاح وتذلُّل.
- من كان لسانه رطبا بذكر الله، وقلبه أبدا متعلِّقا بالله، فإنه ساعة الاحتضار ينطلق ذاكرا الله خاشعا؛ ومن كان قلبه دوما في لهو ولعب، فإنَّ لحظة الاحتضار تكون عليه ثقيلة. نسأل الله حسن الخاتمة.
- للقراءة: «**قناطر الخيرات**» إسماعيل الجيطالي؛ و«**الموت والقبر**» عبد الكريم محمد نجيب الحلبي.

قال الله تعالى:

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ اِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُّومِنۢ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿11﴾

بذور المعنى

- ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ اِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾: هذه الآية أعيَت المفسِّرين، وفي تقديري أنها من الغيب الذي لو أراد الإنسان أن يبتَّ فيه بالقطع لخيف منه أن يقول على الله ما لا يليق؛ ولا أدلَّ على هذا الاضطراب من أنَّ «الإذن» فسِّر بقائمة من المعاني منها: إرادة الله، أمره، تقديره، قضاؤه، مشيئته، علمه، تمكينه، ترخيصه، تخليته بين السبب والمسبب، رفعه الموانع...
- غير أنَّ المؤدى والفحوى واضحٌ لا غبار عليه، وهو أن لا شيء يندُّ عن إرادة الله جَلَّجَلَالُهُ، ولا شيء يقع صغيرا كان

أو كبيرا إلاَّ والله تعالى عليمٌ به، آمرٌ به، قاضٍ له... ومن ذلك ما يصيب الناس من مصائب هي ليست خارج إرادة الله ومشيئته سبحانه؛ وإنما هي اختبار وامتحانٌ منه لعباده، قال جل من قائلٍ في كتابه الكريم: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الاَرْضِ وَلاَ فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾[الحديد:22].

- ﴿وَمَنْ يُؤمِنۢ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾: من يُسلم أمره لله جَلَّجَلَالُهُ، ويؤمن به سبحانه، ولا يعتقد النفع والضرَّ في غيره؛ يكون جزاؤه عند الله الكريم أن يهديه في حال الضرَّاء للصبر والحمد، وفي حال السرَّاء للشكر والحمد؛ فهو مهديٌّ في جميع الحالات؛ وهذه هداية أخرى يهدى إليها المؤمن، فضلا من الله ونعمةً.

- وكأنَّ القضيَّة مركَّبة: يؤمن المرء بالله، ثم تصيبه مصيبة، ثم يرضى بالقدر، ثم يزيده الله هداية، ثم يرضى بما قدَّر الله... وهكذا يترشَّح ليكون من المهتدين: ﴿الَّذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّـهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:156-157].

- ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: هو سبحانه عليمٌ بما يُصيب وبمن يُصاب، وبالسرِّ وبالعلن، وبمن رضي فيُسعده ويهدي قلبَه، وبمن سخط فيُشقيه ولا يهدي قلبه؛ وهذا من جملة

علم الله تعالى المطلق.

التشغيل والتفعيل

- الأسباب لا تعمل إلاَّ بأمر من الله تعالى، فإن حدث المسبَّب فبإذن الله لا من ذاته؛ وهو القادر على أن يعطِّلها إذا أراد ولم يأذن لها؛ وليس ذلك في المعجزة فقط، ولكنَّه يقع في حالات من حياة الناس أنَّ كل الأسباب تجتمع، ثم لا تكون النتيجة؛ لأنَّ الله تعالى عطَّلها بقضاء منه وقدر.
- الإذن بالله للمصيبة إذنٌ تكوينيٌّ وهو غير الإذن التشريعيِّ «ولـذا، كانت بعض المصائب غير جائز الصبرُ عليها، ولا مأذونا في تحمُّلها، ويجب على الإنسان أن يقاومها ما استطاع، كالمظالم المتعلِّقة بالأعراض والنفوس» (الميزان) والرضا بالذلَّة من الخلق مخالفةٌ للرضا بالمصيبة من الله سبحانه؛ فمن تمام الاستسلام لله مقاومة ما يأتي من العباد من مظالم.

من الفكر إلى الفعل

- من تمام هداية الله تعالى لقلب المؤمن أنه حين المصيبة يسترجع، ويصبر، ويقول كما علَّمه ربه: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. فيحوِّل المصيبة منحة وسلَّما للفوز دنيًا وآخرة.
- في الحديث الشريف: «**عجبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمرَه كلَّهُ له خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلاَّ للمؤمنِ؛ إن أصابتْهُ سرَّاءُ شكر وكان خيرًا لهُ، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صبرَ فكان خيرًا له**».
- وقال ﷺ: «**ما يصيب المسلم من نَصَب، ولا وَصَب، ولا همٍّ، ولا حزن، ولا أذى، ولا غمٍّ، حتى الشوكة يُشاكها إلاَّ كفَّر الله بها من خطاياه**».
- للقراءة: «**كتاب القضاء والقدر**» للبيهقي أحمد بن الحسين. و«**من هو سيد القدر؟**» للبوطي محمد سعيد رمضان.

قال الله تعالى:

وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿12﴾

بذور المعنى

- ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾: كرَّرت الآيةُ الأمرَ بالطاعة، وقد علَّل البعض التكرار بأنَّه للفرق بين إطاعة الله جَلَّ جَلَالُهُ وإطاعة رسوله ﷺ؛ غير أنَّ هذا التعليل رغم أهميته يمكن أن يقوى بأدلَّة أخرى تعضده.
- ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾: إن أعرضتم ولم تُقبلوا على أمره ﷺ، فاعلموا أنَّ الرسول، منسوبا إلى الله تعالى ﴿رَسُولِنَا﴾ للتعظيم وللقدر والشأن؛ اعلموا أنه لم يكلَّف بهدايتكم، ولم يُسأل عن استجابتكم؛ وإنما كلِّف بالتبليغ بوضوحٍ وإبانةٍ، حتى تفهموا وتُدركوا؛ وهدايتكم

وعدم هدايتكم هي خيار بأيديكم: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف:29].

- الآية مؤذنة بنزول العذاب بعد تبليغ الرسول ﷺ، إذا لم يستجب الذين بلغهم الحقُّ، فإذا أعرضوا عنه، واختاروا سبيل الكفر والنفاق، ولم يلتزموا سبيل الإسلام والإيمان؛ فإن لم يعجَّل لهم العذاب في الدنيا، نالوا جزاءهم يوم القيامة: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت:46].
- الرسول سيبقى رسولا لله سواء آمن به قومه أو كذَّبوه، أطاعوه أو عصوه؛ ذلك أنَّ كلَّ الرسل قد أدَّوا الأمانة، وبلَّغوا الرسالة، ونصحوا في مهمَّتهم، ولم يفرِّطوا في شيء: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[النحل:35]، ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةُم بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء:165].

التشغيل والتفعيل

- «الله تعالى لم يجعل لولي الأمر طاعة مستقلة»[الشعراوي]، فطاعة أولياء الأمر تابعة لطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ.
- في خطبة الوداع، السنة العاشرة للهجرة، حين حجَّ رسول الله ﷺ حجَّته الأخيرة، خطب في الناس قائلا: «**ألا هل**

بلَّغت؟ قالوا: نعم. قال: **اللهمَّ اشهَد، فليبلِّغ الشاهد الغائبَ، فربَّ مبلَّغ أوعى من سامعٍ»**.

- يقول العلامة محمد الغزالي: «القيَم في عصور التخلف والوهن أيضاً تنقلب إلى شعارات تعلو بها الأصوات، وتسقط معها الهمم، وتخبو قدرات التغيير، ويظن معها أنَّ حلَّ المشكلات يستدعي مزيداً من الصراخ والعويل والاحتجاج، فيتوقَّف الفعل ويعمُّ الانفعال، وتحصل حالة من فقدان التوازن الدينيِّ؛ فيستغرق الناس في صور من العبادات تشكل لهم مهارب نفسية هي أقرب إلى البدع والخرافات منها إلى الدين بصفائه ونقائه، وعطائه وفاعليته».

- العاصم من الخزي في الدنيا، ومن العذاب في الآخرة، هو طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وطاعة رسول الله ﷺ؛ وإجراءُ حركة الحياة على نبضِ التقوى والخشية، والسعيُ بين حدَّي الوعد والوعيد؛ فلا إفراط ولا تفريط، ولا فرح ولا قنوط؛ وإنما إيمان وتصديق، مع حسن ظنٍّ بالله جَلَّ جَلَالُهُ.

من الفكر إلى الفعل

- الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ شهيدٌ على المسلمين، وقد بلَّغ ما أمِر به، وأبرأ ذمته؛ والمسلمون شهداء على الناس جميعا؛ فهل قد بلَّغوا؟ وهل أبرؤوا ذممهم اليوم، حيال أكثر من سبعة ملايير من الناس؟.
- ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنَ اَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾.
- تحديد مهمَّة الرسول ﷺ أنها التبليغ لا الهداية؛ يساعد في تحديد مهمَّة الداعي إلى الله تعالى، والمرشد إلى الخير؛ أنَّ عمله لا يتجاوز التبليغ إلى ضمان الهدي والهداية.
- للقراءة: «**نظرات في مسيرة العمل الإسلامي**» محمد الغزالي حاوره عمر عبيد حسنة.

قال الله تعالى:

﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿13﴾﴾

بذور المعنى

- ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: مقتضى طاعتكم لله ورسوله أن توحِّدوا الله كما أمر، وقد أمر سبحانه أن يوحَّد ويُشهد له بالانفراد والوحدانية، بصيغة: «لا إله إلاَّ الله»؛ وهي هنا ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي الله هو المستحقُّ للعبودية دون غيره من الشركاءِ، الذين اتخذهم الناس وعبدوهم وهم لا يملكون ضرًّا ولا نفعا، فهم جميعا خلق من خلق الله، لا حول لهم ولا قوة.
- ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾: واجبُ المؤمن أن يفوِّض أمره إلى الله تعالى، ويكِل شأنه إليه وحدَه، موقنًا أنه سبحانه

هو المقدِّم والمؤخِّر، هو الذي أمرُه بين الكاف والنون: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا اَنْ يَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:82]. وإذا لم يتوكَّل الإنسان على الله حقَّ التوكُّل، فلا ريب أنَّ في إيمانه خللاً، وفي اعتقاده تشوُّهًا.

التشغيل والتفعيل

- «عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: من قال: **«أشهد أن لا إله إلا الله وحده، وأن محمدا عبدُه ورسوله؛ وأن عيسى عبد الله وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنَّ الجنة حقٌّ، وأنَّ النار حقٌّ، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء»** قال الإمام النووي: «هذا حديث عظيم الموقع، وهو أجمع، أو مِن أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد؛ فإنه عَلَيْهِ السَّلَامُ جمع فيه ما يخرج عن جميع مِلل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدهم».
- ﴿وَمَنْ يَّتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ إِنَّ اللهَ بَالِغُ اَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[الطلاق:3].
- «التوكيل: إقامة الإنسان غيرَه مقام نفسه في إدارة أمورِه، ولازم ذلك قيام إرادته مقام إرادة موكّله، وفعله مقام فعلِه... الإطاعة توكيلٌ بوجه، والتوكيلُ إطاعةٌ بوجه»[الميزان في تفسير القرآن].

- ليست الشهادة «لا إله إلاَّ الله» مجرَّد شعار يردَّد بالألسن، ويكتب على البراويز، ويذكَّر به في الدروس والخطب؛ وإنما هو «منهج حياة»، و «موقف من الحياة»، والتزام تجاه الوجود بكل حيثياته، وبجميع مستوياته: تجاه الله الواحد الأحد بالعبودية، وتجاه الإنسان بالإحسان والنفع، وتجاه الكون كلِّه بالتناغم معه وعدم الإفساد فيه، وتجاه الذات بحملها على التوحيد والخير والبرِّ.

من الفكر إلى الفعل

- «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا منِّي دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها وحسابهم على الله**».
- فرَّط المسلمون تجاه «لا إله إلاَّ الله» فلم يبلّغوها كما أمر الله تعالى، ولم يحبِّبوها للتائهين من بني البشر؛ ومن المنسوبين إلى الإسلام من دنَّسها بجعلها شعارا لسفك دماء بريئة، وتقتيل بشر من كلّ جنس ودين؛ بلا أثره من علم، ولا وازع من إيمان.
- قال رسول الله ﷺ: «**لو أنكم توكَّلون على الله حق توكُّله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا، وتروح بطانا**».
- للقراءة: «**شرح النووي على مسلم**» ليحيى بن شرف النووي. و«**شرح المصطلحات الأربعة في القرآن**» لأبي الأعلى المودودي.

قال الله تعالى:

يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ مِنَ اَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿14﴾

بذور المعنى

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ مِنَ اَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾: الله تعالى يحذِّر من بعض الأزواج لا من كلهنَّ، ومن بعض الأولاد لا من جميعهم؛ ويجعلهم عدوًّا للذين آمنوا؛ وواضحٌ أنَّ أصل العداوة هو محلُّ الخلاف أي الإيمان؛ وبذلك يكونون عدوًّا للمؤمن لإيمانهم، وبسبب إيمانهم، وفي شؤون إيمانهم؛ فهؤلاء الأزواج والأبناءُ حريصون على صرف المؤمنين عن أصل الإيمان، أو عن الأعمال الصالحة الواجبة، التي بها يكتمل الإيمان: كالجهاد، والإنفاق، والنصرة، والهجرة؛ أو عداوتهم تتمثَّل

في حملهم على المعصية: كالبخل، والغصب، والربا، وغشيان مواطن الفساد، وموالاة أعداء الله، ومعاداة أولياء الله... وغيرها من المعاصي، التي ترتكبونها لجيشان عاطفتكم نحوهم.

- ينصرِف الذهن في فهم هذه الآية وغيرها إلى الزوج الذكَر، أنَّه خوطب في زوجته وأولاده؛ غير أنَّ الآية تخاطب الذكر والأنثى معًا، بالخطاب العام: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وتقولُ للذكر كما تقول للأنثى: ﴿إِنَّ مِنَ اَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ...﴾ فكَم من زوج كان عدوًّا لزوجة صالحة تريده للخير والإيمان ويدعوها للشرِّ والكفران، وكم من زوج له زوجة هي عدوٌّ له، إذ تجرُّه إلى ما لا يرضي الله تعالى.
- ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾: حذَرَ العدوِّ من عدوِّه؛ ولا تستسلمُوا لضعفكم، ولا تستجيبوا لعواطفكم حيالهم؛ ولكن اعلموا أنهم لن يُغنوا عنكم من الله شيئًا؛ فالتزموا الحذر، ولا تقاطعوهم؛ هذا هو المعنى الذي مال إليه المفسِّرون.
- غير أنَّ الله تعالى فتح عليَّ بتوجيه آخر لمعنى الحذر، وهو أن تبالغوا في الحرص والمحافظة عليهم، لئلاَّ يكونوا لقمَة سائغةً للنارِ، مثل العدوِّ المتخفِّي الذي يُغريك ويستدرجك إلى النار بسلاسة وهدوء: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[التحريم:6]؛ وكما يقال: احذروا أزواجكم وأهليكم، يقال: احذروا أنفسكم التي بين جنبكم

أن تخدعوها، أن تُضلوها، أن تدنِّسوها.

- والفحوى أن رُبُّوا أهليكم، وعلِّموهم أمورَ دينهم، وامنحوا لهم من عمركم ما به ينجون عند الله، وامنعوهم من مواطن الهلاك، وأبلغوهم رضا الله تعالى... فإنَّ في ذلك نجاة لأنفسكم أنتم، وفي تضييعه هلاك لأنفسكم أنتم.

- ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: الآية كما تحذِّر من الوقوع في مصيدة الأزواج والأبناء الذين يدفعون إلى الابتعاد عن الإيمان؛ كذلك تحذِّر من الاندفاع بالعاطفة إلى حدِّ الإسراف والظلم؛ وعدم العفو والصفح والمغفرة، إذا ما أخطؤوا ورجعوا؛ فهي ترفض القساوة ضدَّهم؛ لأنَّ ذلك كفيلٌ أن يُبعدهم عن الحقِّ، وأن لا يحبِّب إليهم سبل الإيمان.

- الإسلام سلامٌ ودعوة إلى السلام والتسامح، وبذلك تُكتسب القلوب وتلين. وإذا سامحتُم وصفحتم وعفوتم، فتذكَّروا أنَّ الله تعالى قد سامحكم من قبلُ، ولقد عفا عنكم في مواطن كثيرة؛ ولو أنَّه تعالى عاملَكم بالقساوة لما عرفتم ريحَ الإيمان، ولما اهتديتم إلى روح الإسلام، ولأخذكم على معاصيكم وذنوبكم أخذ عزيز مقتدرٍ.

التشغيل والتفعيل

- «في سبب نزول الآية روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان الرجل يُسلم، فإذا أراد أن يهاجر منعه أهله وولده، وقالوا: نَنشدك الله أن تذهب فتدع أهلك وعشيرتك، وتصير إلى المدينة بلا أهلٍ ولا مالٍ، فمنهم من يرقُّ لهم ويقيم ولا يهاجر، فأنزل الله هذه الآية»[الواحدي: أسباب النزول].
- وفي رواية عن أبي جعفر، قال: «منهم من يمضى في هجرته ويذرُهم، ويقول: «أمَا والله لئن لم تهاجروا معي لم يجمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة، لا أنفعكم بشيء أبدا»..

من الفكر إلى الفعل

- الآية درسٌ في الدعوة إلى القريب المخطئ، ولا ريب أنَّ القريب المحسن يكون أمرُه أوكد، والإحسان إليه أوجبُ.
- يجعل البعض من الآية خطابًا عَدائيا، في حين أنها آية بالغة في الدعوة إلى التسامح، والعفوِ، والمغفرة؛ والإحسان إلى الأرحام حتى وإن ظلموا او كفروا.
- ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنَ اَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.
- للقراءة: «**أيها الولد المحبُّ**» أبو حامد الغزالي؛ «**بوبال**» رواية، محمد باباعمي.

قال الله تعالى:

إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿15﴾

بذور المعنى

- ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾: كأنما حُصرت مهمَّة المال والولد في كونها اختبارًا وامتحانًا؛ وأصل الفتنة من فتن المعدن أي اختبره بالنار؛ وذلك لصعوبة هذا الاختبارِ، ولكونه يجلِّي نوعَ المعدن، ويفضح هشاشته وضُعفه، ويميِّز الماسَّ والذهب عن التراب والحديد؛ وفي كلتا الحالتين: الوجدُ والفقدُ؛ الفقرُ والغنى، التمتُّع بالولدِ أو الابتلاء بالعقم؛ في كلُّ الحالات أمرُ المال والولد فتنةٌ؛ فكما فتن الله من أعطاه ليَشكر، فَتن من حرمه ليصبر.
- ما كان محبوبًا إلى النفس، يميل إليه الإنسان بالفطرة،

وينجذب إليه طواعيةً، وتتلقَّاه الشهوة بالانفتاح والانشراح؛ جميعه فتنة: النساء، البنون، المال، الذهب، الخيل المسومة، الشهرة، السلطة...

- بين هذه الآية والتي قبلها المختلِف هو «الأزواج» ذكرت في الأولى، و«الأموال» ورد ذكرها في الثانية؛ أمَّا ما ورد في الآيتين فهو «الأولاد»؛ كأنَّ فتنة الولد هي الأشدُّ وُعُورةً، فوافق أن ترد في الآيتين. بخاصَّة إذا اعتبرنا موضوعُ الهجرة، كما فصِّلت في سورة الممتحنة، قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾[الآية 3].

- ﴿وَاللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: وأجر الله تعالى لا حدَّ له ولا حصر لمن اجتاز الاختبار بأمانٍ، وصان نفسه وأهله وأولاده من الهلاكِ، فأوردهم مواطن النجاح وأصدرهم طعمَ الفلاحِ.

- وأجرُ الله عظيم لمن لم يمنعه ماله وولده من الهجرة، والجهاد، وبذلِ الخير، والمحافظة على خط الإيمان حيًّا فيه، وفي أهله وأولاده.

التشغيل والتفعيل

- «مِن أبلغ ما يفسِّر معنى الآية حيال فتنة الولد، حديث رواه أبو بريدة قال: كان رسول الله ﷺ يخطبنا، إذ جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: صدق الله ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ فنظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»[رواه أبو داود]. ويشدُّنا هذا البيان النبويُّ، ونسأل اليوم: لو فعل خطيبٌ مثل هذا، ما حدُّ الرفق والعنف الذي يصيبه ممَّن حوله؟ ولا ريب أنَّ الإسلام يؤكّد الحالة الإنسانية للإنسان ويعالجها، فلا يكبتها، ولا يقمعها فيهلكها ويشوِّهها.

من الفكر إلى الفعل

- سأل سيدنا زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه تعالى أن يرزقه الولدَ: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ فأعطي الولد الصالح.
- وسأل سيّدنا سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه مُلكا لا يبلغه أحدٌ مِن بعده، فأعطاه الله هذا الملك، وكان سببا له أن ينصر دينه بقوة وتمكن.
- وهكذا شأن المؤمن مع المال والولد؛ يسأل الله المال الحلالَ، والذرية الصالحة؛ ويتخذهما مرقاة للنجاة، ويجعل منهما لنفسه سلَّما للفلاح والصلاح.
- للمطالعة: «**يوم في بيت رسول الله**» عبد المكرم القاسم.

قال الله تعالى:

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿16﴾

بذور المعنى

- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾: اتقوا الله واجعلوا بينكم وبين عذابه وقايةً ما على قدرِ استطاعتكم وجهدِكم، ما دمتم مستطيعين ذلك قبل حلول العجز.
- رُوِي أنه حين نزلت ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[آل عمران:102]، قال الصحابة: جاء أمرٌ شديدٌ، قالوا: ومن يعرف قدر هذا أو يبلُغه؟ فلمَّا عرف الله أنَّه قد اشتدَّ ذلك عليهم نسخَها عنهم، وجاء بهذه الآية الأخرى فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.
- ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾: اسمعوا ما أمَرتُكم به، وأطيعوا الله

ورسوله كما ورد في آية سابقةٍ: ﴿وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾ ولا تتولَّوا، ولا تعرِضوا. ولقد وصف الله تعالى الذين لا يستكبرون بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ﴾[المائدة:83].

- ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾: وفي شأن الأموال التي هي فتنةٌ لكم، السبيلُ القويم في حقِّها أن تكسِبوها من حلال، ثم تنفقوها لوجه الله تعالى في حلالٍ؛ ولا يسمَّى إنفاقا ما كان من حرامٍ وفي حرامٍ؛ لأنَّ الله تعالى طيِّبٌ لا يقبل إلا طيِّبا.
- وإن تنفقوا فذلك كلُّه خيرٌ لأنفسكم، ونجاةٌ لها، وزكاةٌ؛ ويقرب أن يكون خيرا للأهل والولد كذلك؛ لأنَّ ثمرة الإنفاقِ متعديَّة وحصنٌ للنفس والأهلِ والبلد...
- ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: في سورة الحشر جاءت هذه العبارة تذييلا لحال الأنصار، ذلك أنَّ مِن صفتهم أنهم وقَوا أنفسهم من الشحِّ فأفلحوا، ونالوا رضا الله العلي العظيم. وهي هنا قاعدة عامَّة في أنَّ الفلاح رهينٌ بوقاية النفس من الشحِّ؛ لأنَّ النفس أساسًا تأمر بالسوء وتدعو إلى البخلِ، والوقايةُ منها تكون بتقوى الله وبالسماع والطاعة المأمور بهما في سياق الآية.

التشغيل والتفعيل

- عن النبي ﷺ قال: «**دعوني ما تركتكم، إنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء، فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم**»[متفق عليه]، والحديث توجيه للآية وبيان لبعض معانيها.
- قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله طيِّب لا يقبل إلاَّ طيِّبا ... ثم ذكر الرجل يُطيل السفر، أشعث أغبرَ، يمدُّ يديه إلى السماء: يا ربِّ يا ربِّ، ومَطعمه حرام، ومَشربه حرام، ومَلبسه حرام، وغُذِّي بالحرام، فأنّى يُستجاب له؟**»[رواه مسلم].

من الفكر إلى الفعل

- تقوى الله تعالى هي ملاك الأمر كلِّه، وهي الضمان أن ينجو صاحبُها، ويطهّر ماله من الحرام، وتصلح ذرّيته.
- السمع والطاعة لله ورسوله، وإذا وجب السمع لعبد فلأنه يستمدُّ من المصدر، ولا يكون ذلك استقلالا.
- «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» قاعدة كلية في التربية، والإدارة، والسياسة...
- وجب أن نردّد دوما: «سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا، وإليك المصير».
- وطِّن النفس على الصدقة، ولقد ورد عن بعض الكرماء أنه ينوي الإنفاق مما ليس عنده، فيرزقه الله به، ثم ينفقه؛ ثقةً في ربه، وإيمانا بحقيقة الكرم والإخلاف من الله سبحانه.
- «اللهم أعط منفقا خلفا، وأعط ممسكا تلفا» (دعاء الملائكة الكرام).

قال الله تعالى:

إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿17﴾

بذور المعنى

- ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾: سمَّى الله تعالى الإنفاق في سبيله إقراضا لله، وسمَّى المال المنفَق قرضًا حسنا؛ وذلك ترغيبا وحثًّا على الإنفاق، ما دام الذي تقرضه هو ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾، وهو ﴿الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، وهو «الغفور الشكور»؛ والله تعالى يضاعف بغير حسابٍ، ويخلف في الدنيا والآخرة: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَآءُ﴾[البقرة:261].
- لا يسمَّى القرض قرضا حسنًا إلاَّ إذا كان حلالا، وسلِّم بإخلاصٍ، وأنفِق مع طِيب نفسٍ، وفي الأوجُه التي أمر الله

تعالى بأن يُنفق فيها.

- ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾: الإنفاق في سبيل الله تعالى من موجبات المغفرة لمن أخلص النيَّة لله تعالى، وقد وعد الله الكريمُ بالمغفرة لمن أنفق: ﴿وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[الرعد:31]، والصدقة جالبة لرضا الله تعالى، مانعة من سخطه؛ عكس البخل والشحِّ وسوء الخلق.
- ﴿وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾: الله تعالى يشكر لعباده أعمالهم الصالحةَ، وهو حليمٌ بهم حين يخطئون ويُسيئون، ثم يتوبون ويستغفرون؛ ومن أبواب التوبة أن يسخوا بمالهم، ويحاربوا داعي الشحِّ في نفوسهم؛ كذلك وجب أن يتخلقوا بأخلاق الله «الشكور الحليم».

التشغيل والتفعيل

- قصر القرض الحسن في المال فقط لا مبرِّر له، وإنما المعنى ما كان من نفقة بالمال أو النفس أو كلِّ ما يسمى «نفقة» مثل الكلمة الطيبة، والعلم النافع، ودفع الضرر عن الغير، ونشر الصلاح... قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾[سبأ:39]، ومعلوم أنَّ لفظة ﴿شَيْءٍ﴾ هي أدلُّ شيء على كلِّ شيء، وهي أوسع كلمة في اللغة العربية، ولذلك قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الفرقان:2]. ثم إنَّ

الله تعالى قال: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[التوبة:41]، فجمع بين الجهادين، وبين النفقتين؛ وقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[الحج:35].

- في سورة الحديد، قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[الآية 11]؛ وفي سورة التغابن: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[الآية 17]؛ ولو جمعنا المنح التي أعدَّها الله تعالى لمن يُقرضه قرضا حسنا بين الآيتين، لكانت: المضاعفة فيما يخلفه، والمغفرة، والأجرُ الكريم، والشكرُ للمنفق، والحلم عليه. بهذا تكتمل نعم الله على المنفق، فيكون عند الله مرْضيًّا.

- وفي قاعة كلية في العلاقة بين العبد وربه، قال جلَّ من قائل مما ورد في سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[الآية 40].

- ناسب نهاية السورة بالإنفاق، ذلك أنَّ سورة الطلاق التالية هي سورة الرزق والإنفاق والحثِّ عليه، وهي سورة تبيِّن سبُله، وذلك في العديد من الآيات، منها: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾[الآية 7].

من الفكر إلى الفعل

- من يقرض الله تعالى قرضا حسنا، فهو يقرض الذي سلعته غالية، قال رسول الله ﷺ: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إنَّ سلعة الله غاليةٌ، ألا إنَّ سلعة الله غالية، ألا إنَّ سلعة الله الجنَّة**».
- عن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ ذكر النار فأشاح بوجهه، فتعوَّذ منها، ثمَّ ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوَّذ منها، ثم قال: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة**».
- للمطالعة: «**قناطر الخيرات**» إسماعيل الجيطالي. و«**الصدقة... عطاءٌ بلا حدودٍ**» ريم المتولي؛ وانظر مشروعها الحضاري في الإنفاق عبر وسائل التواصل.

قال الله تعالى:

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿18﴾

بذور المعنى

- ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: الله تعالى لا يخفى عليه شيءٌ، فهو العالم والعليم بالغيب الذي لا يعرفه ولا يحيط به أحدٌ سواه؛ وهو عالم وعليم بالشهادة لا يخفى عليه شيءٌ منها.
- ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: له العزَّة والغلبةُ والقهر على المخلوقات كلِّها: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[يونس:65]؛ وهو الحكيم فيما قضى وفيمَا قدَّر، وحكيمٌ في تصريفه شؤونَ الكون، لا شيء يسير بلا تقدير سبهللا: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد:8].

التشغيل والتفعيل

- ورد قول تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ في القرآن الكريم عشر مرات في تسع سور؛ في سياقات مختلفة، منها: التوحيد، والبعث، وعلم الله ما في الأرحام، وتدبير أمر الخلق، والأجل... ولو أنَّ بحثا أعدَّ في هذا المعنى العميقِ، وفي أثره الإيمانيِّ على المسلم المعتقد والموقن أنَّ الله تعالى ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾؛ لكان جديرا بالعناية، نافعًا ومفيدًا.
- أغلب السور المسبّحات ورد فيها قوله تعالى ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في الآية الأولى، وفي سورة التغابن وهي من المسبّحات، ورد في الآية الأخيرة من السورة: ما الحكمة من ذلك؟ وما هو وجه البيان؟
- من الناحية المعرفية، ومن مدخل التوحيد «يجب أن نفصل بين الجانب العلميِّ الأكاديميِّ الصرف ـ بلغة العصر ـ وبين الجانب الاجتماعيِّ السلوكيِّ العمليِّ للدين، كما عُبر عنه قديما: إنَّ هناك ما هو "مضنون به على غير أهله"، فليس من الحكمة أن نحمِّل العامَّة قضايا عجَز حتى أهل العلم والاختصاص أن يبتُّوا فيها بقول فصل لاشتمالها على الغيب الإلهيِّ، واختصاص الله تعالى بدقائقها من دون خلقه من البشر؛ ووسِعَ الخلقَ أن يسلِّموا فيها بالحقِّ للحقِّ، ولا يظنُّوا إلا خيرا، ويُرجعوا العلم للعالم الأجلِّ الواحد الأحد».

من الفكر إلى الفعل

- الغيبُ ما خفي عن الإنسان علمه، واستحال عليه إدراكه؛ وهذا يدفعنا إلى بناء نظرية المعرفة على أساس أنَّ دائرة الجهل عند الإنسان أوسعُ من دائرة العلم؛ ويعيد تأسيس المعارف على أسس مختلفة عن المدرسة الوضعية المهيمنة على العلم اليوم .
- ﴿لِلَّهِ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾.
- اللهم أعزَّنا بعزِّ الإسلام، وأذلَّ الكفَّار بذلِّ الكفر؛ وارزقنا الحكمة والعلم النافع؛ وانفع بنا خلقك... آمين.
- للقراءة: «**الظاهرة القرآنية**» مالك بن نبي. و«**أصول الإيمان**» مصطفى وينتن ومحمَّد باباعمي.

فهرس الآيات

تفسير سورة الجمعة 19

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي...﴾ 21

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ...﴾ 27

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا...﴾ 33

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ...﴾ 37

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ...﴾ 41

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا...﴾ 46

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِي...﴾ 53

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا...﴾ 59

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا...﴾ 64

تفسير سورة المنافقون 69

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا...﴾ 71

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا...﴾ 76

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ...﴾ 81
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ...﴾ 87
﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ...﴾ 91
﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا...﴾ 95
﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى الْمَدِينَةِ...﴾ 100
﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ...﴾ 104
﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم...﴾ 108
تفسير سورة التغابن 113
﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ...﴾ 115
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ...﴾ 119
﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ 124
﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ 128
﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ...﴾ 132
﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن...﴾ 138
﴿فَئَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ...﴾ 142
﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ...﴾ 146

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِئَايَاتِنَآ...﴾ 151
﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ...﴾ 155
﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ 159
﴿اللهُ لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ...﴾ 163
﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنَ...﴾ 167
﴿إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ...﴾ 172
﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ...﴾ 176
﴿إِن تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ 180
﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ...﴾ 184